الينابيع

مجدي صابر

رحلة السندباد المجهولة



الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

رحلة السندباد المجهولة

إشراف : الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ) ، شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

يطلب من : **شركة أبو الهول للنشر**

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٠٦-٨ ، ٣٩٢٤٦١٦

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٩٢٤٨٣٩

الطبعة الأولى ١٩٩٧

رقم الإيداع ١١٣١١ / ١٩٩٦

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٢٣٣ - ٠

رسوم : محمد نبيل عبد العزيز

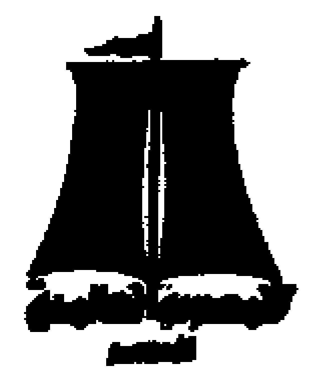
طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة



رحلة السندباد المجهولة

مجدي صابر





الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

الْفَصْلُ الأَوَّلُ
الشَّيْخُ الغامِضُ

كانَ السِّنْدِبادُ يَعيشُ في عَصْرِ الخَليفَةِ (هارونَ الرَّشيدِ) في بَغْدادَ . وَكانَ فَتًى ثَرِيًّا وَرِثَ عَنْ والِدِهِ التّاجِرِ الثَّرِيِّ مالاً عَظيمًا وَضِياعًا واسِعَةً . وَلَكِنَّ السِّنْدِبادَ كانَ قَليلَ الخِبْرَةِ ، وَلَيْسَ لَهُ ناصِحٌ أَوْ قَريبٌ يُرْشِدُهُ ، فَأَوْشَكَ أَنْ يُبَدِّدَ ثَرْوَتَهُ ، وَظَلَّ مالُهُ يَتَناقَصُ عَلى الدَّوامِ دونَ أَنْ يَتَنَبَّهَ إِلى ذَلِكَ ، وَهُوَ مَشْغولٌ بِلَهْوِهِ وَمَرَحِهِ ، وَرِفاقِهِ الَّذينَ ما صادَقوهُ إِلا بِسَبَبِ هَذا المالِ ، فَصاروا يَتَحَلَّقونَ حَوْلَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَيُزَيِّنونَ لَهُ ما يَفْعَلُهُ ، وَيَمْتَدِحونَ كُلَّ أَقْوالِهِ ، وَكَأَنَّهُ الحَكيمُ الأَريبُ .

وَلَكِنْ بِرَغْمِ ما اشْتُهِرَ بِهِ السِّنْدِبادُ مِنْ لَهْوٍ وَتَعَطُّلٍ وَمَيْلٍ إِلى الحَياةِ الرَّغْدَةِ الهانِئَةِ دونَ مَشَقَّةٍ أَوْ تَعَبٍ ، فَقَدْ كانَ

يُمارسُ رياضاتٍ مُخْتَلِفَةً ، فكانَ أبْرَعَ صَحْبِهِ في السِّباحَةِ وَأسْرَعَهُمْ في الجَرْيِ وَأمْهَرَهُمْ في رَمْيِ السِّهام . وَأعْطَتْهُ الرِّياضاتُ قَدًّا مُعْتَدِلاً وَنَشاطًا وَفيرًا . وَكانَ إلى جانِبِ ذَلِكَ لا يُشيحُ بِوَجْهِهِ عَنْ فَقيرٍ وَلا يُقَتِّرُ عَلى مُحْتاجٍ أوْ مَريضٍ . وَلا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ عَنْ تَقْديمِ العَوْنِ لِمَنْ يَحْتاجُهُ . وَكانَ أكْثَرَ ما يَكْرَهُهُ ، أنْ يَرى ظالِمًا يَبْغي عَلى مَظْلومٍ .

وَذاتَ يَوْمٍ خَرَجَ السِّنْدِبادُ في جَمْعٍ مِنْ أصْحابِهِ إلى الأسْواقِ القَريبَةِ مِنْ بَغْدادَ ، وَقَدِ انْتَوى أنْ يَشْتَرِيَ مِنْ حُرِّ مالِهِ ، ثَوْبًا فاخِرًا لِكُلِّ صاحِبٍ لَهُ ، فَيُهْدِيَهُ لَهُ عُرْبونًا لِلصَّداقَةِ وَالمَحَبَّةِ .

وَما إنْ خَطا السِّنْدِبادُ داخِلاً السّوقَ ، حَتّى تَصاعَدَتْ جَلَبَةٌ وَعَلا صُراخٌ ، وَظَهَرَ بَعْضُ الجُنودِ ، وَهُمْ يَضْرِبونَ أحَدَ البائِعينَ ضَرْبًا شَديدًا ، وَيُنَكِّلونَ بِهِ تَنْكيلاً قَوِيًّا ؛ انْتِقامًا مِنْهُ إذْ رَدَّ عَلى أحَدِهِمْ سِبابَهُ وَشَتائِمَهُ ، وَرَفَضَ أنْ يَبيعَ لَهُ .

فَغَضِبَ السِّنْدِبادُ ، وَغَلى الدَّمُ في عُروقِهِ ، وَقالَ

لأصْحابِهِ : « لا يَحِقُّ لِلْجُنودِ مُعامَلَةُ الباعَةِ المَساكينِ بِمِثْلِ تِلْكَ القَسْوَةِ ، وَعَلَيْنا إيقاف هَؤلاءِ الجُنودِ عمّا يفْعَلونَ ، وَلَوِ اضْطُرِرْنا لِخَوْضِ مَعْرَكَةٍ ضِدَّهُمْ . »

فَصاحَ رِفاقُ سِنْدِبادَ فيهِ مُرْتَعِبين : « لا شَأنَ لَنا بِهَذا الأمْرِ ، فَدَعْنا نَهْرُبُ مِنْ وُجوهِ هَؤُلاءِ الجُنودِ ، وَإلا نالَنا مِنْ سِياطِهِمْ نَصيبٌ . »

وَانْدَفَعوا هاربِينَ تاركينَ السِّنْدِبادَ وَحْدَهُ ؛ فَتَضاعَفَ غَضَبُهُ وَقالَ لِنَفْسِهِ : « تَبّا لِمِثْلِ هَؤُلاءِ الأصْدِقاءِ ، الَّذينَ يَفِرّون كالأرانِبِ ، إذا ما لاحَ الذِّئْبُ مِنْ بَعيدٍ . »

وَصَرَخَ في الجُنودِ : « تَوَقَّفوا عَمّا تَفْعَلونَ . »

فَاجْتَذَبَتْ صَرْخَتُهُ انْتِباهَ الجُنودِ ، وَوَلَّوا وُجوهَهَمْ شَطْرَهُ ، وَقَدْ زادَ غَضَبُهُمْ وَانْقَلَبَتْ سَحَناتُهُمْ ، وَصاحَ قائِدُهُمْ وَهُوَ يُشيرُ لِسِنْدِبادَ بِطَرَفِ سَوْطِهِ : « إنَّهُ الفَتى سِنْدِبادُ ، وَهُوَ في حاجَةٍ إلى تَأْديبٍ ، لِيَكُفَّ عَنِ التَّدَخُّلِ فيما لا يَعْنيهِ ، فَعَلَيْكُمْ بِهِ ، أيُّها الجُنودُ . »



فانْطَلَقَ الجُنودُ فَوْقَ جِيادِهِمْ ، رافِعينَ سِياطَهُمْ ، مُتأهِّبينَ لِجَلْدِ السِّنْدبادِ ، وَلَكِنَّهُ تَلَقَّفَ أوَّلَ سَوْطٍ فَوْقَ ذِراعِهِ وَجَذَبَ صاحِبَهُ فَألْقاهُ مِنْ فَوْقِ جَوادِهِ ، وَقَبَضَ السِّنْدبادُ عَلى السَّوْطِ ، وَانْهالَ بِهِ عَلى كُلِّ مَنْ حاوَلَ الاقْتِرابَ مِنْهُ ، مِن الجُنودِ ، فَفَرَّقَ شَمْلَهُمْ قليلاً ، وَلَكِنَّهُمْ عادوا يُحيطونَ بِهِ في دائِرَةٍ مُحْكَمَةٍ ، وَانْهالوا بِسِياطِهِمْ فَوْقَهُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، فَسَقَطَ مِنْهُ سَوْطُهُ ، وَتَمَزَّقَتْ مَلابِسُهُ ودَمى وَجْهُهُ وَذِراعاهُ .

وَلكِنَّ السِّنْدبادُ لَمْ يَأْبَهْ بِما جَرى لَهُ ، وَاشْتَبَكَ في قِتالٍ بِالأيْدي مَعَ الجُنودِ وَهُوَ يَجْذِبُهُمْ مِنْ فَوْقِ جِيادِهِمْ ، وَيُلْقيهِمْ عَلى الأرْضِ ، وَلَكِنَّ كَثْرَتَهُمْ فاقَتْ شَجاعَتَهُ ، وَأوْشَكَتْ قُوى السِّنْدبادِ أنْ تَخورَ ، فَأدْرَكَ أنَّهُ يَخوضُ مَعْرَكَةً يائِسَةً ، وَأنَّهُ لَوْ وَقَعَ في أيْدي الجُنودِ ؛ لَكانَ مَصيرُهُ السَّجْنَ المُؤَبَّدَ أوِ الإعْدامَ ، بِتُهْمَةِ مُقاوَمَةِ جُنودِ الوَزيرِ ، وَالاعْتِداءِ عَلَيْهِمْ .

وَمِنْ مَكانٍ قَريبٍ عَلَتْ صَيْحَةٌ تَقولُ : « أسْرِعْ بِالهَرَبِ

وَالنَّجاةِ بِنَفْسِكَ ، أيُّها السِّنْدِبادُ . »

وَكَأَنَّما كانَ السِّنْدِبادُ يَنْتَظِرُ تِلْكَ الصَّيْحَةَ ، فَأَسْرَعَ جارِيًا بِكُلِّ سُرْعَتِهِ ، فَانْطَلَقَ الجُنودُ خَلْفَهُ فَوْقَ جِيادِهِمْ . فَأَخَذَ السِّنْدِبادُ يَعْدو مِنْ طَريقٍ إلى طَريقٍ ، وَمِنْ دَرْبٍ إلى زُقاقٍ ، حَتّى أَلْفى نَفْسَهُ أَخيرًا قَدْ صارَ داخِلَ زُقاقٍ مَسْدودٍ ، فَأَصابَهُ اليَأْسُ وَأَوْشَكَ عَلى الاسْتِسْلامِ ، وَأَصْواتُ سَنابِكِ خُيولِ الجُنودِ المُطارِدينَ تَبْلُغُ أُذُنَيْهِ في دَوِيٍّ شَديدٍ ، وَأَصْحابُها يوشِكونَ عَلى وُلوجِ الزُّقاقِ ، وَالقَبْضِ عَلَيْهِ .

وَلَكِنْ فَجْأَةً انْفَتَحَ بابٌ قَريبٌ ، وَامْتَدَّتْ يَدٌ فَجَذَبَتِ السِّنْدِبادَ إلى الدّاخِلِ ، وَعاوَدَتْ إغْلاقَ البابِ .

وَعِنْدَما اقْتَحَمَ جُنودُ الوَزيرِ الزُّقاقَ ، وَجَدوهُ خالِيًا وَأَبْوابَهُ موصَدَةً . فَصاحَ قائِدُ الجُنودِ في رِجالِهِ : « لا بُدَّ أَنَّ هَذا الفَتى المُشاغِبَ سِنْدِباد قَدِ اخْتَفى داخِلَ أَحَدِ هَذِهِ البُيوتِ ، وَعَلَيْكُمْ بِتَفْتيشِها واحِدًا وَراءَ الآخَرِ ، وَالوَيْلُ لِمَنْ نَجِدُهُ قَدْ أَخْفى ذَلِكَ الفَتى الهارِبَ . »

وَلَكِنَّ التَّفْتيشَ لَمْ يُسْفِرْ عَنْ شَيْءٍ . وَبَعْدَ ساعاتٍ اضْطُرَّ جُنودُ الوَزيرِ إلى الانْصِرافِ آسِفينَ .

وَامْتَدَّتْ يَدٌ تُزيحُ الغِطاءَ عَنْ إحْدى الجِرارِ الكَبيرَةِ في إحْدى حُجُراتِ مَنْزِلٍ قَريبٍ ، فَظَهَرَ السِّنْدِبادُ مُخْتَفِيًا داخِلَ الجَرَّةِ . وَرَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ داخِلِها ، وَتَساءَلَ قَلِقًا : « هَلْ غادَرَ جُنودُ الوَزيرِ المَكانَ ؟»

فَأَوْمَأَ مُنْقِذُهُ بِرَأْسِهِ وَقالَ : « لَقَدْ فَتَّشوا المَكانَ ، وَلَمْ يَخْطِرْ لَهُمْ بِبالٍ أَنْ يَبْحَثوا داخِلَ هَذِهِ الجَرَّةِ ، وَهذا حالُ الأَغْبِياءِ دائِمًا ، فَإِنَّ عُيونَهُمْ تَعْمى عَمّا يَبْتَغونَ ، وَلَوْ كانَ الشَّمْسَ السّاطِعَةَ في السَّماءِ . »

فَغادَرَ السِّنْدِبادُ مَخْبَأَهُ ، وَتَأَمَّلَ مُنْقِذَهُ فَوَجَدَهُ شَيْخًا في الخَمْسينَ مِنْ عُمْرِهِ ، تَكْسو وَجْهَهُ مَهابَةٌ وَوَقارٌ ، وَيَسْكُنُ عَيْنَيْهِ السَّوْداوَيْنِ حُزْنٌ عَجيبٌ غامِضٌ ، وَيُجَلِّلُ شَعْرَ رَأْسِهِ وَلِحْيَتَهُ القَصيرَةَ بَياضٌ في لَوْنِ الحَليبِ ، وَقَدْ لَوَّحَتِ الشَّمْسُ وَجْهَهُ فَصارَ بِلَوْنِ البُرونْزِ ، مِمّا يَقْطَعُ بِأَنَّهُ خاضَ أَسْفارًا طَويلَةً .

فَقالَ السِّنْدِبادُ لِلشَّيْخِ في صَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « شُكْراً لَكَ ، أيُّها الرَّجُلُ الكَريمُ ، لَقَدْ ساقَكَ القَدَرُ لي في لَحْظَةٍ مُناسِبَةٍ . »

فَأجابَهُ الشَّيْخُ : « بَلْ لَعَلَّ القَدَرَ هُوَ الَّذي ساقَكَ إليَّ قَبْلَ أنْ يَسوقَني إلَيْكَ . »

لَمْ يَدْرِ السِّنْدِبادُ ما يَقْصِدُهُ الشَّيْخُ بِحَديثِهِ ، وَ واصَلَ مُحَدِّثُهُ قائِلاً : « « لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ الكَثيرَ ، يا سِنْدِبادُ ، وَعِنْدَما تَناهى إلى أذُنَيَّ رَكْضُ الخُيولِ وَ وَقْعُ أقْدامِكَ الهارِبَةِ ، وَصُراخُ الجُنودِ باسْمِكَ يَسْبِقُ ظُهورَهُمْ ، أدْرَكْتُ أنَّكَ في مَأزِقٍ ، وَكانَ مِنَ الواجِبِ عَلَيَّ إنْقاذُكَ ، مَهْما يَكُنِ الخَطَرُ الَّذي يَتَرَصَّدُني بِسَبَبِ ذَلِكَ . وَلَكِنْ أخْبِرْني لِماذا طارَدَكَ جُنودُ الوَزيرِ ، أيُّها الفَتى ؟ »

فَقَصَّ لَهُ السِّنْدِبادُ كُلَّ ما جَرى ، فَالْتَمَعَتْ عَيْنا الشَّيْخِ بِبَريقٍ عَجيبٍ ، وَقالَ لِلسِّنْدِبادِ وَهُوَ يُرَبِّتُ عَلى كَتِفِهِ في حَنانٍ : « هَكَذا الأحْرارُ الشُّجْعانُ في كُلِّ مَكانٍ ، لا يَرْضَوْنَ بِالظُّلْمِ ، وَيَتَحَدَّوْنَ القُوَّةَ الباغِيَةَ ، حَتّى لَوْ

تَعَرَّضوا لِلْموتِ في سَبيلِ ذَلِكَ . »

وَهَزَّ رَأسَهُ المُجَلَّلَةَ بالوَقارِ دونَ أنْ يُقاطِعَهُ السِّنْدِبادُ ، وَأضافَ : « وَلَكِنّي لَوْ كُنْتُ مَكانَكَ ، ما أنْفَقْتُ مالي عَلى أصْحابي ، فَيَأكُلونَ عَلى مَوائِدي وَيَنْعَمونَ بِأمْوالي ، ثُمَّ يَكونونَ أوَّلَ الهارِبينَ إذا ما نَزَلَتْ بي المِحَنُ وَداهَمَتْني الشَّدائِدُ . »

قالَ السِّنْدِبادُ باسِمًا : « وَلَكِنَّهُمْ رِفْقَةٌ طَيِّبَةٌ ، وَلَطالَما قَضَيْنا أوْقاتًا سَعيدَةً مَعًا ، وَسَمِعْتُ مِنْهُمُ الكَثيرَ مِنَ المَديحِ وَالكَلِماتِ المُسْكِرَةِ . »

فَأجابَهُ الشَّيْخُ : « إذَنْ فَتَعَلَّمْ أنْ تَحْتَرِسَ مِنَ المُنافِقينَ ، فَهُمْ كَالسُّكَّرِ الزّائِدِ ، يُفْسِدُ الصِّحَّةَ وَيَأتي بِالعِلَلِ ، إذا ما تَناوَلْنا مِنْهُ أكْثَرَ مِنْ حاجَتِنا . »

فَلَمْ يَجِدِ السِّنْدِبادُ ما يَقولُهُ ، وَغابَ الشَّيْخُ داخِلَ إحْدى الحُجُراتِ بُرْهَةً ، ثُمَّ عادَ بِما يُطَهِّرُ جِراحَ السِّنْدِبادِ ، وَأخْرَجَ مِنْ دولابِهِ ثَوْبًا ارْتَداهُ السِّنْدِبادُ بَدَلاً مِنْ

ثَوْبِهِ المُمَزَّقِ .

وَقالَ الشَّيْخُ لِلسِّنْدِبادِ : « لا شَكَّ أَنَّكَ جائِعٌ بَعْدَ تِلْكَ المَعْرَكَةِ الَّتي خُضْتَها مَعَ جُنودِ الوَزيرِ . »

وَغابَ مَرَّةً أخْرى وَعادَ وَهُوَ يَحْمِلُ سَلَّةً قَدِ امْتَلأتْ بِكُلِّ أنْواعِ الفاكِهَةِ ، وَصَحْنًا كَبيرًا قَدْ فاضَ بِالثَّريدِ واللَّحْمِ . وَكانَ السِّنْدِبادُ في شِدَّةِ جوعِهِ ، فَانْقَضَّ عَلى الطَّعامِ يَلْتَهِمُهُ الْتِهامًا ، حَتّى أتى عَلَيْهِ . وَبَعْدَ أنْ غَسَلَ يَدَيْهِ تَطَلَّعَ إلى مُنْقِذِهِ في حَيْرَةٍ وَسَأَلَهُ : « وَلَكِنْ أخْبِرْني مَنْ تَكونُ ، أَيُّها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ ، وَلِماذا غامَرْتَ بِإنْقاذي وَعَرَّضْتَ حَياتَكَ لِلْخَطَرِ بِسَبَبي ، دونَ سابِقِ مَعْرِفَةٍ ؟»

فَأَجابَهُ مُضيفُهُ في لَهْجَةٍ لا تَكْشِفُ سِرا : « إنَّني عَبْدٌ مِنْ عِبادِ الله ، أجولُ في البِلادِ وَأَبْحَثُ بَيْنَ العِبادِ ، فَأَمْتَطي البِحارَ وَتَدْفَعُني الرِّياحُ وَتَتَلَقَّفُني الشَّواطِئُ واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ . »

فَتَعَجَّبَ السِّنْدِبادُ مِمّا قالَهُ الشَّيْخُ ، وَلَمْ تُفْصِحْ لَهُ إجابَتُهُ عَنْ شَيْءٍ ، بَلْ زادَتْ مِنْ غُموضِهِ وَسِرِّهِ .

وَشَعَرَ السِّنْدِبادُ بنُعاسٍ ثَقيلٍ يُطْبِقُ عَلَيْهِ ، فَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وتَمَدَّدَ مَكانَهُ وَغَرِقَ في نَوْمٍ عَميق . ثُمَّ أفاقَ دونَ أنْ يَدْري كَمْ مِنَ الوَقْتِ غَلَبَهُ النَّوْمُ . وَتَنَبَّهَ إلى أصْواتِ المُنادِينَ وَهُمْ يَدُقّونَ طُبولَهُمْ ، صائِحينَ في سُكّانِ الزُّقاق :

« لَقَدْ قَرَّرَ الوَزيرُ مُكافَأَةً قَدْرُها مائَةُ دينارٍ مِنَ الذَّهَب ، لِمَنْ يُرْشِدُ عَنْ مَكانِ السِّنْدِبادِ الهارِب ، أوْ يَقومُ بِتَسْليمِهِ لِرجالِ الشُّرْطَةِ ، كما أعْلَنَ مُصادَرَةَ كُلِّ أمْلاكِ السِّنْدِبادِ وَأمْوالِهِ . »

فَانْكَمَشَ السِّنْدِبادُ مَكانَهُ وَأصابَهُ الذُّعْرُ ، وَأدْرَكَ أنَّهُ قَدْ خَسِرَ بِما فَعَلَهُ كُلَّ مالِهِ ، وَصارَ مُهَدَّدًا في حُرِّيَّتِهِ وَحَياتِهِ أيْضًا . وَقالَ لِنَفْسِهِ وَقَدْ رَكِبَهُ شَيْءٌ مِنَ الخَوْفِ : « عَلَيَّ الهَرَبَ بِسُرْعَةٍ ، فَما يُدْريني أنَّ ذَلِكَ الشَّيْخَ الَّذي أنْقَذَني قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ لِيُسْلِمَني إلى جُنودِ الوَزيرِ ، لِيَنالَ المُكافَأَةَ الَّتي تَوَقَّعَ رَصْدَها ، لِمَنْ يَقْبِضُ عَلَيَّ . »

وَما كادَ السِّنْدِبادُ يُغادِرُ مَكانَهُ ، حَتّى سُمِّرَتْ قَدَماهُ

مَكانَها ، وَقَدْ شاهَدَ الشَّيْخَ الَّذي أنْقَذَهُ يَدْخُلُ عَلَيْهِ في نَفْسِ اللَّحْظَةِ مِنْ باب بَيْتِهِ .

وَقالَ الشَّيْخُ لِلسِّنْدبادِ وَكَأنَّهُ قَرأَ أفْكارَهُ : « لا تَخْشَ شَيْئًا ، أيُّها الفَتى ، فَلَسْتُ مِنْ صائِدي الْمُكافَآتِ وَالجَوائِزِ . وَإذا شِئْتَ مُغادَرَةَ المَكانِ الآنَ ، فَافْعَلْ ، فَلَنْ أعيقَكَ عَنِ الهَرَبِ بِأيِّ حالٍ . »

فَجَمَدَ سِنْدبادُ مَكانَهُ وَأصابَهُ الخَجَلُ ، وَقالَ : « مَعْذِرَةً ، يا سَيِّدي ، فَقَدْ أعْماني الإحْساسُ بِالْخَطَرِ عَنْ إدْراكِ الحَقيقَةِ ، وَصِرْتُ لا هَمَّ لي سِوى الهَرَبِ . »

فَقالَ الشَّيْخُ : « إنَّني ألْتَمِسُ لَكَ العُذْرَ ، فَأنْتَ في خَطَرٍ داهِمٍ ، يا سِنْدبادُ ، فَقَدْ خَرَجْتُ في جَوْلَةٍ بِالأسْواقِ ، وَرَأيْتُ كَثيرًا مِنَ الجُنودِ يُفَتِّشونَ عَنْكَ في كُلِّ مَكانٍ ، وَهُمْ يُقْسِمونَ أنَّكَ لَوْ وَقَعْتَ في أيْديهِمْ ، لَقَتَلوكَ لِساعَتِكَ ، فَقَدْ أمَرَ الوَزيرُ بِذَلِكَ ، عِقابًا لَكَ . »

فَتَضاعَفَ تَوَتُّرُ السِّنْدبادِ وَقالَ حَزينًا : « وَما العَمَلُ الآنَ ، وَإلى أيْنَ المَفَرُّ وَالنَّجاةُ ، وَقَدْ صادَرَ الوَزيرُ كُلَّ

أمْوالي ؟ وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أنَّني إذا الْتَجَأْتُ إلى أصْدِقائي ، كانوا هُمْ أوَّلَ مَنْ يَقومُ بِتَسْليمي لِلْوزيرِ ذاتِهِ ، بِسَبَبِ جُبْنِهِمْ وَخِسَّتِهِمْ . »

وَأطْرَقَ بِرَأسِهِ لَحْظَةً ، ثُمَّ رَفَعَ وَجْهَهُ وَقَدِ اتَّسَعَتْ عَيْناهُ بِبَريقِ الأمَلِ ، وَقالَ : « وَلَكِنّي لَوْ لَجأتُ لِلْخَليفَةِ (هارونَ الرَّشيدِ) أوْ قاضي القُضاةِ ، وَحَكَيْتُ لَهُما عَمّا حَدَثَ لَناصَراني ، وَقاما بِحِمايَتي ، وَدَفْعِ الظُّلْمِ عَنّي ، وَرَدّا إليَّ كُلَّ ما سُلِبَ مِنّي . »

أجابَهُ الشَّيْخُ : « لا سَبيلَ إلى ذَلِكَ الآنَ ، فَإنَّ الخَليفَةَ وَقاضِيَ القُضاةِ قَدْ غادَرا بَغْدادَ في رِحْلَةٍ ، وَلَنْ يَعودا قَبْلَ شُهورٍ . »

فَتَضاعَفَ إحْساسُ السِّنْدِبادِ باليَأْسِ ، وَدَفَنَ رَأْسَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ في حُزْنٍ مَريرٍ وَقالَ : « وَما العَمَلُ الآنَ ، وَكَأنَّ كُلَّ سُبُلِ النَّجاةِ وَالحَياةِ قَدْ سُدَّتْ عَلَيَّ ؟»

قالَ الشَّيْخُ مُطَمْئِنًا : « لا تَخْشَ شَيْئًا ، يا سِنْدِبادُ ،

فَكُلَّما سُدَّتِ السُّبُلُ وَانْقَطَعَتْ خُيوطُ الرَّجاءِ ، كانَ ذَلِكَ إيذانًا بِقُرْبِ قُدومِ الفَرَجِ . »

فَوَلْوَلَ السِّنْدِبادُ قائلاً : « ضاعَ مُسْتَقْبَلي وَكُلُّ مالي . »

فَأَجابَهُ الشَّيْخُ في يَقينٍ : « المُسْتَقْبَلُ يَنْتَظِرُ دائِمًا مَنْ لَهُ القُدْرَةُ عَلى التَّجَلُّدِ وَالصَّبْرِ عَلى المَكارِهِ ، وَقَدْ كانَ مالُكَ مَصيرُهُ إلى زَوالٍ عَلى أيِّ حالٍ ، بِإنْفاقِكَ لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ السَّفَهِ . »

نَكَّسَ السِّنْدِبادُ رَأْسَهُ حَزينًا وَقالَ : « لَيْسَ أمامي الآنَ غَيْرُ مُغادَرَةِ بِغْدادَ ، بَلِ العِراقِ بِأسْرِها ، لِلنَّجاةِ بِحَياتي . »

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَقالَ : « وَكَأَنَّكَ تَقْرَأُ أفْكاري ، يا سِنْدِبادُ . »

فَتَطَلَّعَ السِّنْدِبادُ لِلشَّيْخِ في أمَلٍ وَسَأَلَهُ :

- « هَلْ يُمْكِنُكَ أنْ تُساعِدَني ، أيُّها الشَّيْخُ الجَليلُ في هَذا الأمْرِ ؟ »

فَتَبسَّمَ الشَّيْخُ : « لِهَذا أخْبَرْتُكَ مِنْ قَبْل أنَّ القَدَرَ ساقَكَ إليَّ . . وَلَكِنْ أيْنَ تَنْوي الرَّحيلَ ، يا سِنْدِبادُ ؟»

قالَ السِّنْدِبادُ حائِرًا : « لَسْتُ أدْري . إلى أيِّ مَكانٍ بَعيدٍ عَنِ العِراقِ ، لا تَطولُني فيهِ يَدُ الوَزيرِ . »

أَوْمَأَ الشَّيْخُ بِرَأسِهِ مُوافِقًا وَقالَ : « في الغَدِ تَكونُ رِحْلَتُنا إلى البَصْرَةِ ، وَمِنْها سَنُسافِرُ بَحْرًا إلى أبْعَدَ مِمّا تَتَخَيَّلُ يا سِنْدِبادُ ، فَلا تَقْلَقْ بِشَأنِ هَذا الأمْرِ . »

فَابْتَلَعَ السِّنْدِبادُ دَهْشَتَهُ وَجَفَّ حَلْقُهُ ، وَانْتابَتْهُ بَعْضُ الشُّكوكِ ، فَسَألَ مُضيفَهُ : « وَلَكِنْ كَيْفَ سَنَتَمَكَّنُ مِنْ مُغادَرَةِ بَغْدادَ ، وَجُنودُ الوَزير يَبْحَثونَ عَنّي في كُلِّ شِبْرٍ فيها ، وَيُحاصِرونَ كُلَّ مَداخِلِها وَمَخارِجِها ، وَلَنْ تَعْمى عُيونُهُمْ عَنْ رُؤْيَتي أبَدًا ، مَهْما أفْعَلْ أوْ أتَخَفَّ ؟»

فَقالَ الشَّيْخُ مُتَرَفِّقًا : دَعْ عَنْكَ القَلَقَ ، يا سِنْدِبادُ ، وَاتْرُكْ لي هَذِهِ المُهِمَّةَ ، فَما أهْوَنَها بِالنِّسْبَةِ لِما لاقَيْتُ مِنْ مَشاقَّ وَمَخاطِرَ وَصِعابٍ ، وَما واجَهْتُ مِنْ أهْوالٍ

وَنوازِلَ . »

وَرَفَعَ أصبُعَهُ في وَجْهِ السِّنْدبادِ مُضيفًا : « تَذَكَّرْ أنَّهُ مَهْما تَكُنْ يَدُ الظُّلْمِ قَوِيَّةً ، فَيَدُ اللهِ أقْوى ، فَلا تَفْقِدِ الأمَلَ أبَدًا في رَحْمَةِ اللهِ وَعَدْلِهِ . »

وَرَقَدَ في فِراشٍ قَريبٍ وَهُوَ يَقولُ : « وَالآنَ فَلْتَنْعَمْ بِنَوْمٍ هانِئٍ ، أيُّها السِّنْدبادُ ، فَأمامَنا في الغَدِ مُهِمَّةٌ شاقَّةٌ . »

وَلَكِنْ كَيْفَ كانَ لِلْفَتى المُتَوَتِّرِ سِنْدبادَ أنْ يَنْعَمَ بالنَّوْمِ ، وَقَدْ صارَ مَصيرُهُ مُعَلَّقًا بِذَلِكَ الشَّيْخِ الغامِضِ ، الَّذي لا يَدْري مِنْ أمْرِهِ شَيْئًا وَلا يَعْرِفُ حَتّى اسْمَهُ وَلا مِنْ أيْنَ سَيَمْضي بِهِ ؟

الفَصْلُ الثّاني
الرَّحيلُ إلى المَجْهولِ

لَمْ يَغْمُضْ لِلسِّنْدِبادِ جَفْنٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَهُوَ مُمَدَّدٌ على فِراشِهِ يُصارِعُ القَلَقَ وَالأفْكارَ السَّوْداءَ .

وَقُرابَةَ الفَجْرِ - وَقَدْ أوْشَكَ عَلى إغْماضِ عَيْنَيْهِ - شاهَدَ مُضيفَهُ يُغادِرُ فِراشَهُ في هِمَّةٍ وَنَشاطٍ ، وَكَأنَّهُ في مُهِمَّةٍ عاجِلَةٍ لا تَحْتَمِلُ الإبْطاءَ ؛ فَتَعَجَّبَ السِّنْدِبادُ مِمّا رَأى ، وَلَمْ يَدْرِ سِرَّ ذَهابِ الشَّيْخِ . وَرَآهُ يَعودُ بَعْدَ ساعَةٍ بِوَجْهٍ باسِمٍ وَمَلامِحَ مُطْمَئِنَّةٍ ، وَقالَ لِلسِّنْدِبادِ : « لَقَدْ تَمَّ كُلُّ شَيْءٍ كَما أرادَ اللهُ . »

لَمْ يَشَإِ السِّنْدِبادُ أنْ يَسْألَهُ عَمّا يَتَحَدَّثُ عَنْهُ ، وَلا سِرِّ خُروجِهِ في الفَجْرِ . وَقالَ سائِلاً : « مَتى سَنُغادِرُ بَغْدادَ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ : « عِنْدَ شُروقِ الشَّمْسِ بِالضَّبْطِ . »

فَسَأَلَهُ السِّنْدِبادُ قَلِقًا : « وَكَيْفَ سَنَتَوارى عَنْ عُيونِ الجُنودِ ؟»

أَجابَهُ الشَّيْخُ مُبْتَسِمًا : « وَمَنْ قالَ إنَّنا في حاجَةٍ لِلتَّواري وَالاخْتِباءِ ؟»

اِزْدادَ قَلَقُ السِّنْدِبادِ ، وَسَأَلَ مُضيفَهُ : « ماذا تَعْني بِقَوْلِكَ ؟»

أَجابَهُ الشَّيْخُ : « ما أَعْنيهِ واضِحٌ لا يَحْتاجُ لِتَفْسيرٍ أَوْ بَيانٍ . فَلَسَوْفَ تُغادِرُ بَغْدادَ ، يا سِنْدِبادُ ، سافِرَ الوَجْهِ مَكْشوفَ الشَّخْصِيَّةِ ، يَراكَ كُلُّ إنْسانٍ ، فَيكونُ في ذَلِكَ رَدٌّ لاعْتِبارِكَ ، لِيَعْرِفَ كُلُّ إنْسانٍ في العِراقِ أَنَّكَ لَمْ تُغادِرْها هارِبًا مُتَخَفِّيًا . »

قَفَزَ السِّنْدِبادُ مِنْ مَكانِهِ صارِخًا : « ماذا قُلْتَ ، أَيُّها الرَّجُلُ ؟ أَ مَجْنونٌ أَنْتَ ؟»

الْتَمَعَتْ تِلْكَ النَّظْرَةُ الغَريبَةُ في عَيْنَيِ الشَّيْخِ وَقالَ : « قَدْ يَكونُ الجُنونُ لِشَخْصٍ ما ، هيَ الحِكْمَةَ بِعَيْنِها

لآخَرَ !»

صاحَ السِّنْدِبادُ غاضِبًا : « دَعْكَ مِنْ هَذِهِ الأقْوالِ الَّتي لا أفْقَهُ مِنْها شَيْئًا ، وَقُلْ لي إنْ كنتَ تَنْوي تَسْليمي لِلْجُنودِ !»

أجابَهُ الشَّيْخُ في نَبْرَةٍ هادِئَةٍ : « اِسْألْ قَلْبَكَ إنْ كانَ ما يَنْطِقُ بِهِ لِسانُكَ هُوَ الحَقُّ الَّذي تَعْتَقِدُهُ . »

قالَ السِّنْدِبادُ بِاضْطِرابٍ : « وَلَكِنْ . . »

قاطَعَهُ الشَّيْخُ سائِلاً : « أ تَثِقُ بي أمْ لا ؟»

أجابَهُ السِّنْدِبادُ بِصَوْتٍ أشَدَّ اضْطِرابًا : « لَيْسَ لي سِواكَ أثِقُ بِهِ ، فَأَنْتَ رَجائِيَ الوَحيدُ ، وَلَوْ كانَ فيكَ هَلاكي . »

قالَ الشَّيْخُ بِنَفْسِ النَّبْرَةِ الهادِئَةِ : « إذَنْ دَعِ اللهَ يَفْعَلُ ما يَشاءُ ؛ فَإذا كانَ كُلُّ شَيْءٍ يَجْري بِمَشيئَتِهِ فَعَلامَ القَلَقُ ؟»

وَظَلَّ السِّنْدِبادُ عَلى قَلَقِهِ وَالشَّيْخُ عَلى هُدوئِهِ حَتّى بانَتْ أوَّلُ خُيوطِ الشَّمْسِ . وَقالَ الشَّيْخُ كَأَنَّهُ يُحَدِّثُ

نَفْسَهُ : « ها قَدْ حانَتْ لَحْظَةُ مُغادَرَتِنا بَغْدادَ . »

أَوْشَكَ السِّنْدِبادُ أَنْ يَقولَ شَيْئًا ، وَلَكِنَّ الكَلِماتِ انْحَبَسَتْ فَوْقَ لِسانِهِ ، عِنْدَما دَوّى انْفِجارٌ شَديدٌ هَزَّ المَكانَ هَزًّا ، وَعَلَتْ سَحابَةٌ سَوْداءُ في السَّماءِ ، فَأَوْشَكَتْ لِكَثافَتِها أَنْ تَحْجُبَ ضَوْءَ الشَّمْسِ الوَليدَ ؛



فَقَفَزَ السِّنْدِبادُ مِنْ مَكانِهِ صائِحًا في ذُهولٍ : « ما الَّذي جَرى ، وَما سِرُّ هَذا الانْفِجارِ وَتِلْكَ السَّحابَةِ الَّتي حَجَبَتِ الشَّمْسَ ؟»

جَذَبَهُ الشَّيْخُ مِنْ يَدِهِ قائِلاً : « هَيّا ، يا سِنْدِبادُ ، فَقَدْ حانَ أوانُ الرَّحيلِ وَلا وَقْتَ الآنَ لِطَرْحِ الأسْئِلَةِ . »

وَجَذَبَهُ مِنْ يَدِهِ وَغادَرَ المَنْزِلَ ، فَسارَ السِّنْدِبادُ خَلْفَهُ يَتْبَعُهُ كَالْمَسْحورِ أوِ الْمُنَوَّمِ . وَشاهَدَ في الخارِجِ الخَلْقَ وَقَدْ غادَروا بُيوتَهُمْ مَفزوعينَ ، وَراحوا يَجْرونَ في كُلِّ مَكانٍ هاربينَ صارِخينَ ، وَهُمْ يُشيرونَ لِلسَّحابَةِ السَّوْداءِ الكَبيرَةِ ، الَّتي راحَتْ تَنْتَشِرُ بِسُرْعَةٍ فَوْقَ كُلِّ البُيوتِ وَالطُّرُقاتِ ، وَالنَّاسُ لا تَدْري سِرَّ ما حَدَثَ ، وَلا تَجِدُ مَكانًا لِلاخْتِفاءِ مِنْ ذَلِكَ الهَوْلِ .

وَشاهَدَ السِّنْدِبادُ السَّحابَةَ السَّوْداءَ وَقَدْ أحالَتْ إشْراقَةَ الصَّباحِ إلى لَيْلٍ، وَكَأنَّما عادَتْ أسْتارُ الظَّلام في أوَّلِ النَّهارِ، حَتّى أوْشَكَ الرّاكِضونَ، ألا يَرَوْا الأشْياءَ حَوْلَهُمْ، إلا عِنْدَ اصْطِدامِهِمْ بِها .

وَصاحَ الشَّيْخُ في السِّنْدِبادِ : « أسْرِعْ ، فَهُناكَ جَوادانِ قَوِيّانِ في انْتِظارِنا . »

وَكانَ الجَوادانِ مَرْبوطَيْنِ في شَجَرَةٍ قَريبَةٍ عِنْدَ مَدْخَلِ الزُّقاقِ ، لَمْ يَكُنْ مِنْ شَكٍّ أَنَّ الشَّيْخَ الغَريبَ قَدْ جَهَّزَهُما مِنْ قَبْلُ ، فَامْتَطى أوَّلَهُما وامْتَطى السِّنْدِبادُ الآخَرَ ، وَصاحَ الشَّيْخُ في السِّنْدِبادِ : « اِتْبَعْني بِجَوادِكَ وَلا تَحِدْ عَنّي مَهْما يَكُنِ الأمْرُ . »

وَألْقى إلَيْهِ بِحَبْلٍ مَرْبوطٍ في سَرْجِ جَوادِهِ ، كَيْ لا يَفْقِدَ طَريقَهُ وَراءَهُ وَسْطَ سَحاباتِ الظَّلامِ ، وَانْطَلَقَ الشَّيْخُ بِجَوادِهِ وَالسِّنْدِبادُ يَتْبَعُهُ راكِبًا وَهُوَ يَلْكُزُ جَوادَهُ لِيُضاعِفَ سُرْعَتَهُ .

وَجَزِعَ السِّنْدِبادُ عِنْدَما شاهَدَ عَدَدًا مِنَ الجُنودِ يُهْرَعونَ مَفْزوعينَ مِنْ قَلْبِ عَتَمَةِ الظَّلامِ ، راكِبينَ وَمُتَرَجِّلينَ في اتِّجاهِهِ . وَخَشِيَ أنْ يَنْقَضّوا عَلَيْهِ فَأوْشَكَ عَلى تَرْكِ الحَبْلِ وَالانْطِلاقِ إلى جِهَةٍ أخْرى . وَلَكِنَّهُ شاهَدَ الجُنودَ يَتَّجِهونَ بَعيدًا ، وَقائِدُهُمْ يَصْرُخُ فيهِمْ بِأنْ يَسْتَكْشِفوا

سِرَّ ذَلِكَ الانْفِجارِ ، وَهُمْ لا يَعْبَئُون بِشَيْءٍ إلا النَّجاةَ بِأنْفُسِهِمْ .

وَبَعْدَ لَحَظاتٍ ، بَلَغَ الشَّيْخُ وَالسِّنْدِبادُ رُكْنًا نائِيًا مِنْ نَهْرِ دِجْلَةَ ، وَقَدْ تَبَدَّدَ شَيْءٌ كَثيرٌ مِنَ السَّحابَةِ السَّوْداءِ ، وَدَفَعَتْها الرِّياحُ بَعيدًا ، وَبانَتِ المَعالِمُ في شَكْلٍ كَالضَّبابِ، فَلَمَحَ سِنْدِبادُ شاطِئَ النَّهْرِ وَقَدْ رَسَتْ إلَيْهِ سَفينَةٌ صَغيرَةٌ ، ما إنْ بَلَغا مَرْساها حَتّى صاحَ الشَّيْخُ في السِّنْدِبادِ : « دَعْ جَوادَكَ وَلْنَلْجَأْ إلى هَذِهِ السَّفينَةِ . »

فَفَعَلَ السِّنْدِبادُ كَما أمَرَهُ الشَّيْخُ ، وَما إنِ اسْتَقَرّا داخِلَ السَّفينَةِ حَتّى دَسَّ الشَّيْخُ في يَدِ صاحِبِها قَبْضَةً مِنَ المالِ ، فَلَمْ يَبْدُرْ مِنْهُ أيُّ سُؤالٍ ، وَرَفَعَ مِرْساةَ سَفينَتِهِ ، فَانْطَلَقَتْ تَقْطَعُ النَّهْرَ جَنوبًا بِأشْرِعَةٍ امْتَلأتْ بِالرِّياحِ ، وَهِيَ لا تَحْمِلُ سِوى راكِبَيْنِ اثْنَيْنِ ، هُما السِّنْدِبادُ وَصاحِبُهُ .

وَقالَ السِّنْدِبادُ لِلشَّيْخِ ، وَقَدْ غابَتْ بَغْدادُ بِقُصورِها وَمَبانيها وحَدائِقِها عَنْ عَيْنَيْهِ : « أخْبِرْني ، أيُّها الرَّجُلُ ، هَلْ أنْتَ ساحِرٌ ؟ »

فَسَأَلَهُ الشَّيْخُ في مَكْرٍ بِلَهْجَةِ مَنْ يُدْرِكُ مَغْزى السُّؤالِ : « وَلِماذا تَظُنُّ ذَلِكَ ؟»

أجابَهُ السِّنْدِبادُ لاهِثًا : « تِلْكَ السَّحابَةُ الَّتي اصْطَنَعْتَها فَوْقَ مَدينَةِ بَغْدادَ فَأَعْمَتْ أَبْصارَ الجُنودِ عَنّا ، وَذَلِكَ الانْفِجارُ الَّذي صَرَفَهُمْ عَنِ الاهْتِمامِ بِنا . أَلَيْسَ ذَلِكَ هُوَ السِّحْرَ بِعَيْنِهِ ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ في تُؤَدَةٍ : « إنَّهُ لَيْسَ سِحْرًا ، بَلْ عِلْمًا . »

صاحَ السِّنْدِبادُ في جَهْلٍ : « عِلْمٌ ؟»

واصَلَ الشَّيْخُ في تُؤَدَةٍ : « وَما أوتيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلا قَليلاً . »

قالَ السِّنْدِبادُ حائِرًا : « لَسْتُ أَفْهَمُ ما تَعْنيهِ . »

قالَ الشَّيْخُ وَهُوَ يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ ، وَعَيْناهُ تَضُمّانِ أَسْرارًا لا حَصْرَ لَها : « إنَّهُ البارودُ . »

اِنْدَهَشَ السِّنْدِبادُ لِلإجابَةِ وَتَساءَلَ مُكَرِّرًا : « البارودُ .

وَما هُوَ البارودُ ؟»

قالَ الشَّيْخُ في ابْتِسام : « هُوَ مَسْحوقٌ يَتَفَجَّرُ في دَوِيٍّ شَديدٍ وَيَصْنَعُ مِثْلَ تِلْكَ السَّحابَةِ السَّوْداءِ ، إذا مَسَّتْهُ النّارُ. وَقَد اسْتَأْجَرْتُ رَجُلاً ، طَلَبْتُ مِنْهُ إشْعالَ فَتيلِ البارودِ الطَّويلِ بَعيدًا عَنْ مَكانِ الانْفِجارِ ، عِنْدَ شُروقِ الشَّمْسِ بِالضَّبْطِ ؛ حَتّى لا يُصابَ بِمَكْروهٍ . وَقَدْ جَعَلْتُ مَرْكَزَ انْفِجارِ البارودِ في مِنْطَقَةٍ عَلى أطْرافِ بَغْدادَ ، حَتّى لا يُصابَ أحَدُ الأبْرِياءِ بِضَرَرٍ . »

اِبْتَلَعَ السِّنْدِبادُ لُعابَهُ في دَهْشَةٍ وَقالَ : « لَمْ أسْمَعْ عَنْ هَذا البارودِ مِنْ قَبْلُ . »

قالَ الشَّيْخُ في تَواضُعٍ : « أنا أيْضًا كُنْتُ مِثْلَكَ ، قَبْلَ أنْ أذْهَبَ إلى الصّينِ . »

تَساءَلَ السِّنْدِبادُ لاهِثًا : « وَهَلْ ذَهَبْتَ إلى الصّينِ ؟ إنَّها كَما أسْمَعُ بِلادٌ بَعيدَةٌ جِدًّا . »

قالَ الشَّيْخُ مُتَبَسِّمًا : « هُناكَ بِلادٌ أبْعَدُ مِنَ الصّينِ

كَثيرًا ، وَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَيْها أَيْضًا . »

عادَ السِّنْدبادُ يَسْأَلُ في إِلْحاحٍ : « وَذَلِكَ البارودُ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ الانْفِجارِ ؟»

أَوْمَأَ الشَّيْخُ بِرَأْسِهِ وَقالَ : « بَلْ يَفْعَلُ ما هُوَ أَكْثَرُ . المُهِمُّ أَنْ تَتَحَكَّمَ في الخَليطِ الَّذي تُجَهِّزُهُ مِنْهُ ، وَقَدْ قُمْتُ بِصِناعَتِهِ بِنَفْسي فَجَعَلْتُهُ يُحْدِثُ مِثْلَ ذَلِكَ الانْفِجارِ المَحْسوبِ ، مَصْحوبًا بِتِلْكَ السَّحابَةِ السَّوْداءِ مِنْ ناتِجِ الانْفِجارِ .

دَهِشَ السِّنْدِبادُ مِمّا سَمِعَ وَقالَ : « لَوْ أَنَّ أولَئِكَ الجُنودَ الَّذينَ كانوا يُطارِدونَني امْتَلَكوا هَذا البارودَ - لَتَعاظَمَ شَرُّهُمْ ، وَعاثوا في الأَرْضِ فَسادًا ، وَلَكِنْ . . »

عَبَسَ الشَّيْخُ بِوَجْهِهِ وَقالَ : « لِهَذا احْتَفَظْتُ بِسِرِّهِ في قَلْبي ، وَلَمْ أَسْتَخْدِمْهُ إِلا لِلضَّرورَةِ . وَالآنَ سَيَظُنُّ أولَئِكَ الجُنودُ وَرِفاقُهُمْ وَ وَزيرُهُمْ أَنْ نَيْزَكًا قَدْ سَقَطَ مِنَ السَّماءِ فَأَحْدَثَ ذَلِكَ الانْفِجارَ وَالسَّحابَةَ السَّوْداءَ ، وَلَنْ يُكْتَشَفَ السِّرُّ أَبَدًا ؟»

تَأمَّلَ السِّنْدِبادُ مُحَدِّثَهُ في دَهْشَةٍ وَسَألَهُ : « هَلْ تحتَفِظُ بِأسْرارِ أشْياءَ أخْرى عَجيبةٍ مِثْلِ ذَلِكَ البارودِ ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ بِتِلْكَ النَّظْرَةِ الغامِضَةِ : « لِكُلٍّ أوانٍ سِلاحُهُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عَليمٌ . فَما أكْثَرَ الأسْرارَ الَّتي تَحْتَفِظُ بِها الطَّبيعَةُ وَسَيَبْلُغُها الإنْسانُ يَوْمًا ما ، وَيُزيحُ السِّتارَ عَنْ دَقائِقِها . »

اِعْتَرَضَ السِّنْدِبادُ في إلْحاحٍ : « وَلَكِنْ . . »

قاطَعَهُ الشَّيْخُ في بِحَسْمٍ : « لا تَسْبِقِ الأحْداثَ ، يا سِنْدِبادُ ، ولا تَنْشَغِلْ بِما هُوَ آتٍ قَبْلَ مَجيئِهِ . »

فَصَمَتَ السِّنْدِبادُ وَأطْبَقَ شَفَتَيْهِ ، وَقَدْ تَعاظَمَ احْتِرامُهُ لِذَلِكَ الشَّيْخِ . وَبَعْدَ أيّامٍ بانَتْ مَعالِمُ البَصْرَةِ وَميناؤُها الكَبيرُ ، فَقالَ الشَّيْخُ : « ها قَدْ وَصَلْنا إلى مُبْتَغانا . »

فَقالَ السِّنْدِبادُ مُتَلَهِّفًا : « عَلَيْنا الرَّحيلَ فَوْقَ أوَّلِ سَفينَةٍ تُغادِرُ الميناءَ . »

أجابَهُ الشَّيْخُ في هُدوءٍ : « سَوْفَ نُقَرِّرُ الرَّحيلَ عِنْدَما

نُتِمُّ عَمَلَنا . »

تَساءَلَ السِّنْدِبادُ بِدَهْشَةٍ : « أيُّ عَمَلٍ ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ وَكَأنَّهُ يُقَرِّرُ أمْرًا كانَ مَفْعولاً : « أنْ نَبْحَثَ عَنِ البَحّارَةِ اللازِمينَ . »

تَزايَدَتْ حَيْرَةُ السِّنْدِبادِ وَهُوَ يَسْألُ : « لازِمينَ لأيِّ شَيْءٍ ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ في صَبْرٍ : « إنَّنا في حاجَةٍ لَهُمْ لِقِيادَةِ سَفينَةٍ طولُها ٣٣ مِتْرًا وَعَرْضُها ٨ أمْتارٍ . »

دَهِشَ السِّنْدِبادُ ، وَ وَجَدَ نَفْسَهُ يَسْبَحُ في بَحْرٍ مِنَ الألْغازِ فَقالَ لِلشَّيْخِ في غَضَبٍ وَضيقٍ : « عَنْ أيِّ سَفينَةٍ تَتَحَدَّثُ ؟»

فَأجابَهُ الشَّيْخُ في غُموضٍ أكْثَرَ : « أتَحَدَّثُ عَنْ سَفينَتي ، يا سِنْدِبادُ . »

فَذُهِلَ السِّنْدِبادُ وَسَألَ مُحَدِّثَهُ : « وَهَلْ تَمْلِكُ سَفينَةً بِمِثْلِ تِلْكَ المُواصَفاتِ ؟ إنَّها تُساوي مائَةَ ألْفِ دينارٍ عَلى

الأَقَلِّ . »

بانَ الحُزْنُ في عَيْنَي الشَّيْخِ وَقالَ : « كُنْتُ أَمْلِكُ ثَلاثَ سُفُنٍ أَكْبَرَ مِنْ هَذِهِ السَّفينَةِ ، وَقَبْلَها امْتَلَكْتُ ما يُساوي ثَمَنَ هَذِهِ السَّفينَةِ أَلْفَ مَرَّةٍ . »

وَأَشارَ إلى سَفينَةٍ عَظيمَةٍ تَرْسو قَريبًا ، تَرْتَفِعُ أَشْرِعَتُها إلى عَنانِ السَّماءِ ، وَتَسْتَقِرُّ إلى جِوارِ الميناءِ وَكَأَنَّها قَصْرٌ شامِخٌ ، ولا يَبْدو فَوْقَها بَحّارَةٌ أَوْ رُكّابٌ .

اِبْتَلَعَ السِّنْدِبادُ لُعابَهُ لِمَهابَةِ مَنْظَرِ السَّفينَةِ وَضَخامَتِها ، وَتَساءَلَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « أَ هَذِهِ سَفينَتُكَ ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ في لَوْمٍ : « أَخْبَرْتُكَ مِنْ قَبْلُ أَنَّني عِشْتُ أَجولُ بَيْنَ بِلادِ اللهِ ، وَأَنَّ البَحْرَ مَطِيَّتي وَالمَوانِئَ مَقْصِدي ، فَلَمْ تَفْهَمْ أَنَّني رُبّانٌ ، أَتَنَقَّلُ بَيْنَ المَوانِئِ والبِحارِ . »

أَحَسَّ سِنْدِبادُ بِبَعْضِ الخَجَلِ وَقالَ لِلشَّيْخِ : « وَلَكِنْ أَيْنَ ذَهَبَ بَحّارَةُ سَفينَتِكَ ؟ »

اكْفَهَرَّ وَجْهُ الشَّيْخِ وَقالَ : « لا تَسْأَلْ عَمّا لا يُفيدُكَ كَشْفُ سِرِّهِ ، يا سِنْدِبادُ . »

اِعْتَرَضَ السِّنْدِبادُ : « وَلَكِنْ . . »

اعْتَرَضَهُ الشَّيْخُ بِدَوْرِهِ في لَهْجَةٍ حاسِمَةٍ : « لا وَقْتَ لَدَيْنا ، يا سِنْدِبادُ . فَلْنُسْرِعْ بِجَلْبِ بَحّارَةٍ يَقْبَلونَ الرَّحيلَ مَعَنا ، فَوَقْتي قَصيرٌ وَمَهامّي لا تَحْتَمِلُ التَّأْخيرَ . »

صَمَتَ السِّنْدِبادُ ، وَتَبِعَ الشَّيْخَ عابِسًا ، وَقَدْ تَكَدَّرَتْ مَلامِحُهُ ، وَهُوَ يَتَساءَلُ أَيُّ أَسْرارٍ يُخْفيها عَنْهُ صاحِبُهُ الغامِضُ .

وَأَخَذَ الاثْنانِ يَجوبانِ الأَزِقَّةَ وَالحاناتِ ، بَحْثًا عَنْ بَحّارَةٍ بِلا عَمَلٍ ، فَاجْتَمَعَ لَهُمْ ما يَزيدُ عَلى خَمْسينَ بَحّارًا مِنْ كُلِّ الأَجْناسِ ، كانوا عاطِلينَ عَنِ العَمَلِ . وَعِنْدَما أَظْهَرَ لَهُمُ الشَّيْخُ الدَّنانيرَ الذَّهَبِيَّةَ ، الَّتي دَفَعَها لَهُمْ مُقَدَّمًا ، تَرَكوا كُلَّ شَيْءٍ وَراءَهُمْ ، وَتَبِعوهُ مَلْهوفينَ .

وَأَخيرًا تَمَّ الاسْتِعْدادُ لِلرِّحْلَةِ ، وَزُوِّدَتِ السَّفينَةُ

بالطَّعامِ وَالفاكِهَةِ ، وَرَفَعَتِ السَّفينَةُ مَراسِيَها ، وَتَساءَلَ كَبيرُ البَحّارَةِ ، الَّذي عَيَّنَهُ الشَّيْخُ ، وَكانَ شَرْكَسِيّا يُدْعى مَمْلوك خان : « أيْنَ سَتَكونُ وِجْهَتُنا ، أيُّها الرُّبّانُ ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ : « سَوْفَ نُبْحِرُ إلى المُحيطِ الهِنْدِيِّ بَعْدَ عُبورِنا شَطَّ العَرَبِ . »

عَاوَدَ كَبيرُ البَحّارَةِ سؤالَهُ في صيغَةٍ أخْرى : « وَأيْنَ مَقْصِدُنا النِّهائِيُّ ؟»

ضاقَتْ عَيْنا الشَّيْخِ وَرَمَقَ (مَمْلوك خان) بِنَظْرَةٍ بارِدَةٍ وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « قَدْ تَكونُ المَعْرِفَةُ مُهْلِكَةً في بَعْضِ الأحْيانِ ، فَلا تَتَعَجَّلْها . »

انْصَرَفَ مَمْلوك خان إلى عَمَلِهِ ، وبَسَطَ البَحّارَةُ الأشْرِعَةَ الرَّئيسيَّةَ فَدَفَعَتِ الرِّياحُ السَّفينَةَ الكَبيرةَ لِمُغادَرَةِ الميناءِ، وَراحَتْ تَبْتَعِدُ عَنْهُ حَتّى غابَتْ مَعالِمُ مَدينَةِ البَصْرَةِ عَنْ عَيْنَي السِّنْدِبادِ . وَداهَمَهُ شُعورٌ بالقَلَقِ البالِغِ ، وَانْقَبَضَ قَلْبُهُ وَهُوَ لا يَدْري عَنْ مُسْتَقْبَلِ نَفْسِهِ شَيْئًا .

الفَصْلُ الثّالِثُ

رائِحَةُ الخَطَرِ

قارَبَ أُسْبوعانِ عَلى الانْقِضاءِ وَالسَّفينَةُ الكَبيرَةُ تُبْحِرُ في سُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ وَخِلالَ الأُسْبوعَيْنِ المُنْصَرِمَيْنِ ، تَوَطَّدَتِ العَلاقَةُ بَيْنَ السِّنْدِبادِ وَالشَّيْخ ، وكانَ اسْمَهُ رَشْدانُ ، وَصارا في مَنْزِلَةِ الابْنِ وَأبيهِ . غَيْرَ أنَّ السِّنْدِبادَ ظَلَّ يَجْهَلُ الدّافِعَ إلى تِلْكَ الرِّحْلَةِ ، وَلَمْ يُفْصِحِ الشَّيْخُ رَشْدانُ لَهُ عَنْ ذَلِكَ أبدًا .

وَذاتَ مَرَّةٍ سَألَهُ السِّنْدِبادُ ، وَهُوَ يَرى الذَّهَبَ الكَثيرَ ، الَّذي مَنَحَهُ الشَّيْخُ لِلْبَحّارَةِ : « لا بُدَّ أنَّكَ تَمْلِكُ كَنْزًا مِنَ الذَّهَبِ ، لِتُوَزِّعَهُ بِغَيْرِ حِسابٍ . » فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ دونَ أنْ يُجيبَ السِّنْدِبادَ . وَكانَ الشَّيْخُ رَشْدانُ عالِمًا أريبًا بِكُلِّ فُنونِ البَحْرِ وَمَسالِكِهِ ، خَبيرًا بِالرِّياحِ وَمَواقِعِ النُّجومِ

وَالاتِّجاهاتِ حَتّى دونَ استِخْدامِ الْمِزْوَلَةِ ، لِتَحْديدِ مَوْقِعِ السَّفينَةِ في عُرْضِ الْمُحيطِ ، مُعْتَمِدًا عَلى أماكِنِ النُّجومِ في اللَّيْلِ ، وَجِهَةِ شُروقِ الشَّمْسِ وَغروبِها .

وَقالَ السِّنْدِبادُ مُتَبَسِّطًا لِلشَّيْخِ رَشْدانَ : « أرى أنَّنا نَتَّجِهُ لِلطَّرَفِ الشَّرْقِيِّ مِنْ إفْريقيا ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ أرْضٌ بَعْدَ هَذِهِ القارَّةِ أوْ وراءَها . »

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ الرُّبّانُ وَأجابَهُ : « ما أقَلَّ ما تَعْرِفُ عَنِ الدُّنْيا . »

فَقالَ السِّنْدِبادُ : « وَلَكِنَّ البَحّارَةَ أخْبَروني أنَّهُ لا شَيْءَ بَعْدَها سِوى الماءِ الَّذي لا يَنْتَهي . »

فَقالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ ساخِرًا : « ما أقَلَّ ما يَعْرِفُ هَؤُلاءِ البَحّارَةُ ، عَلى كَثْرَةِ أسْفارِهِمْ . »

اِتَّسَعَتْ عَيْنا السِّنْدِبادِ طَلَبًا لِلْمَعْرِفَةِ وَسَألَ مُحَدِّثَهُ : « وَهَلْ توجَدُ أرْضٌ أُخْرى غَيْرُ الَّتي نَعْرِفُها ؟»

حَدَّقَ الشَّيْخُ رَشْدانُ في الأفُقِ البَعيدِ ، وَقالَ : « ما

أَكْثَرَ عَجائِبَ اللهِ في كُلِّ مَكانٍ . وَما أَغْرَبَ تِلْكَ الأَرْضَ الواقِعَةَ في قِمَّةِ العالَمِ في أَقْصى طَرَفِهِ الشَّمالِيِّ . »

فَسَأَلَهُ السِّنْدِبادُ في انْدِفاعٍ وَلَهْفَةٍ : « صِفْها لي . »

أَجابَهُ الشَّيْخُ وَكَأَنَّهُ يَراها أَمامَ عَيْنَيْهِ : « هِيَ جَليدٌ دائِمٌ ، وَجِبالٌ مِنَ الثَّلْجِ ، وَشَمْسٌ تُشْرِقُ نِصْفَ عامٍ كَقُرْصٍ بارِدٍ في السَّماءِ ، وَظَلامٌ يَعُمُّ بَقِيَّةَ العامِ ، وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ طَويلٌ لا يَنْتَهي . »

فَغَرَ السِّنْدِبادُ فَمَهُ في ذُهولٍ ، وَتَساءَلَ : « وَهَلْ هُناكَ أَرْضٌ مِنَ الثَّلْجِ وَالجَليدِ ؟»

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَرَماهُ بِنَظْرَةٍ مُشْفِقَةٍ قَبْلَ أَنْ يُجيبَهُ : « وَهُناكَ أَيْضًا أَرْضٌ مِنْ نارٍ ، وَبِحارٌ تَثورُ بَراكينُها في قَلْبِ أَمْواجِها ، وَتَقْذِفُ بِالحُمَمِ وَالنّارِ ، فَتُحيلُ مِياهَ البِحارِ جَحيمًا وَكَأَنَّها حَديدٌ مَصْهورٌ . »

سَأَلَ السِّنْدِبادُ مُحَدِّثَهُ : « وَهَلْ وَطِئْتَ هَذِهِ الأَرْضَ بِقَدَمَيْكَ ، وَقاسَيْتَ مَشاقَّها ، وَرَأَيْتَ عَجائِبَها ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ بِعَيْنَيْنِ يَشْتَدُّ بَريقُهُما : « لَعَلّي أكونُ بالِغَها يَوْمًا ما ، إذا شاءَتْ لِيَ الأقْدارُ . »

فَسَأَلَهُ السِّنْدِبادُ : « فَمَنْ أخْبَرَكَ بِأنْباءِ هَذِهِ الأرْضِ إذَنْ ، وَأكَّدَ لَكَ يَقينَ وُجودِها ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ : « إنَّهُ أَبي ، وَقَدْ كانَ مُغْرَمًا بالتَّرْحالِ وَارْتِيادِ المَجْهولِ ، وَقَدْ راهَنَ أصْحابَهُ يَوْمًا أنْ يَبْلُغَها ، فَوَصَفوهُ بِالجُنونِ ، وأنَّهُ يُريدُ أنْ يَبْلُغَ ما لا وُجودَ لَهُ ، وَلَكِنَّهُ أصَرَّ عَلى ما قالَهُ ، وَارْتَحَلَ في سَفينَةٍ عَظيمَةٍ وَعَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ البَحّارَةِ ، وَغابَ عامَيْنِ قَبْلَ أنْ نَراهُ ثانِيَةً ، دونَ أنْ يَعودَ مَعَهُ أيٌّ مِمَّنِ ارْتَحَلوا في صُحْبَتِهِ ، وَقَدْ طواهُمُ المَوْتُ جَميعًا سِواهُ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ مُتَلَهِّفًا : « وَبِماذا أخْبَرَكَ عَنْ رِحْلَتِهِ ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ : « لَقَدْ دَوَّنَ أبي كُلَّ ما رَآهُ في مُجَلَّدٍ ضَخْمٍ ، أوْصاني بِعَدَمِ مُطالَعَتِهِ إلا بَعْدَ وَفاتِهِ ، وَقَدْ كانَ ، فَصارَ عَجَبي يَتَزايَدُ مَعَ كُلِّ حَرْفٍ أتْلوهُ ، حَتّى بَلَغَ

بيَ الذُّهولُ مُنْتَهاهُ . وَبَعْدَ أنْ أعَدْتُ القِراءَةَ مرّاتٍ ، طَرَدْتُ الذُّهولَ ، وَصِرْتُ أتَمَثَّلُ هَذِهِ الأرْضَ أمامي ، وَكَأنَّني أَراها بِعَيْنِ الخَيالِ ، وَأطوفُ في أرْكانِها ، حَتّى ثارَتْ بِالنِّسْبَةِ لي واقِعًا حَيا تَمَنَّيْتُ رُؤْيَتَهُ بِعَيْنِ الحَقيقَةِ عَلى الدَّوامِ . »

وَ لاحَظَ السِّنْدِبادُ عَلاماتِ القَلَقِ على وَجْهِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، فَسَأَلَهُ : « أراكَ قَلِقًا ، وَكَأَنَّكَ تَخْشى حُدوثَ أمْرٍ جَلَلٍ . »

أوْمَأ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِرَأْسِهِ مُجيبًا بِنَعَم وَهُوَ يَتَأمَّلُ السَّماءَ ، وَقالَ : « لَقَدْ تَجاوَزْنا نِصْفَ الأَرْضِ واقْتَرَبْنا مِنْ مَنْطِقَةٍ خَطِرَةٍ ساخِنَةِ الرِّياحِ ، وَأُحِسُّها قَدْ بَدَأَتْ تَصْعَدُ لأَعْلى بِسَبَبِ خِفَّتِها . »

بَدأَ قَلَقُ الشَّيْخِ رَشْدانَ يَنْتَقِلُ لِلسِّنْدِبادِ ، فَسَأَلَهُ : « وَهَلْ ثَمَّةَ خَطَرٌ في ذَلِكَ ؟»

فَرَكَ الشَّيْخُ أصابِعَهُ في عَصَبِيَّةٍ وَقالَ : « كُلُّ الخَطَرِ ،

فَتِلْكَ الرِّياحُ تَتَحَوَّلُ إلى دُوّامَةٍ بِسَبَبِ سُرْعَةِ حَرَكَتِها ، وَتَتَحَوَّلُ هَذِهِ الدُّوّامَةُ إلى عاصِفَةٍ ، وَقَدْ تَصيرُ إلى إعْصارٍ ساحِقٍ مُدَمِّرٍ ، لا يُبْقي وَلا يَذَرُ . وَلَكِنّي أظُنُّ أنَّنا سَنَجْتازُ مَكانَ هُبوبِ الإعْصارِ قَبْلَ مُداهَمَتِهِ . »

تَطَلَّعَ السِّنْدِبادُ إلى الشَّيْخِ في سَعادَةٍ وَقالَ : « ما أسْعَدَني بِمُصاحَبَتِكَ في هَذِهِ الرِّحْلَةِ . »

قالَ الشَّيْخُ : « لَعَلَّهُ لَيْسَ حَظّاً بَلْ قَدَرٌ ، ساقَكَ إلَيَّ وَساقَني إلَيْكَ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ : « هَلْ كُنْتَ تَبْحَثُ عَنّي حَقّاً ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ دونَ مُوارَبَةٍ : « وَكَأنَّني أفَتِّشُ عَنْ إبْرَةٍ في كُومِ قَشٍّ . »

فَاتَّسَعَتْ عَيْنا السِّنْدِبادِ في ذُهولٍ، وَسَألَ مُحَدِّثَهُ : « وَلَكِنْ كَيْفَ عَرَفْتَ بِوُجودي ، وَنَحْنُ لَمْ نَتَعارَفْ مِنْ قَبْلُ ، وَلا صِلَةَ بَيْنَنا ؟»

قالَ الشَّيْخُ : « كُلُّ الشَّواهِدِ كانَتْ تُؤَكِّدُ وُجودَكَ ،

وَلَمْ يَكُنْ عَلَيَّ غَيْرُ السَّعْيِ ، وَكانَ القَدَرُ رَفيقًا بي وَبِكَ ، فَتَلاقَيْنا بِأَسْرَعَ مِمّا قَدَّرْتُ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ مُتَلَهِّفًا : « وَلَكِنْ لِماذا ؟ لِماذا سَعَيْتَ لِلْبَحْثِ عَنّي ؟»

تَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَأَجابَهُ : « كُنْتُ في حاجَةٍ إلى جُرْأَتِكَ ، وإقْدامِكَ ، وَجسارَتِكَ ، فَبِرَغْمِ خِبْرَتي وَمَعْرِفَتي ، فَلَسْتُ سِوى شَيْخٍ قارَبَ الوَهَنُ أَنْ يُدْرِكَهُ ، وَلَزِمَ عَلَيَّ الاسْتِعانَةُ بِمَنْ كانَتْ لَهُ صِفاتُكَ ، فَالْخِبْرَةُ وَالْمَعْرِفَةُ وَحْدَهُما لا يَكْفِيانِ لِمُواجَهَةِ الشَّدائِدِ في زَمَنٍ صارَ زادُهُ الجَسارَةَ والشَّجاعَةَ ، فَكَأَنَّنا طَرَفانِ نائِيانِ ، كانَ لا بُدَّ مِنِ الْتِحامِهِما ، لِيَزيدَ اتِّحادُهُما قُوَّةً . »

تَعَجَّبَ السِّنْدِبادُ ، وَسَأَلَ الشَّيْخَ : « ما الَّذي أَرَدْتَ الاسْتِعانَةَ بي في مُواجَهَتِهِ ؟»

قالَ الشَّيْخُ : « سَتَعْرِفُ عِنْدَما يَحينُ الأَوانُ ، فَلا تَتَعَجَّلِ الأَقْدارَ . »

الفَصْلُ الرّابِعُ
عَنْبَر والقُرْصانُ الأسْوَدُ

اسْتَمَرَّت السَّفينَةُ في سَيْرِها طَوالَ اللَّيْلِ . وَفَجْأةً عِنْدَ الفَجْرِ انْفَجَرَ في السَّماءِ صَوْتٌ رَهيبٌ ، فَقَفَزَ السِّنْدِبادُ مِنْ فِراشِهِ وَهُرِعَ إلى سَطْحِ السَّفينَةِ ؛ فَشاهَدَ الإعْصارَ الرَّهيبَ يَنْدَفِعُ في قَلْبِ السَّماءِ عَلى شَكْلِ قِمَعٍ لَهُ ذَيْلٌ طَويلٌ ، تَرْتَجِفُ حَوافُّهُ وَتَفورُ وَكَأَنَّها الزَّيْتُ المَغْلِيُّ ، وَقَدْ ذَابَ ضَوْءُ الفَجْرِ الوَليدُ في حُمْرَةِ الإعْصار ، وَقَدْ راحَتِ الرِّياحُ تَصْفِرُ وَكَأَنَّها زَفيرُ الجانِّ ، وَالمِياهُ تَتَقَلَّبُ تَحْتَها وَكَأَنَّها أرْضٌ يَحْرُثُها الهَواءُ .

صَرَخَ السِّنْدِبادُ في هَلَعٍ : « إنَّهُ الإعْصارُ ! »

جاوَبَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ مِنَ الخَلْفِ في صَوْتٍ هادِئٍ : « الحَمْدُ للهِ أنَّنا تَجاوَزْنا في اللَّيْلِ مَنْطِقَةَ قَلْبِ الإعْصارِ ،

وَإلا أصابَنا ضَرَرٌ هائِلٌ، وَما نَجَوْنا مِنْهُ أبَدًا ، وَتَهَشَّمَتْ سَفينَتُنا كأنَّها كَعْكَةٌ صَغيرةٌ تَهرُسُها رَحًى هائِلَةٌ . »

وَاسْتَمَرَّتْ فَرْقَعَةُ الرِّياحِ وَفَورانُ المِياهِ وَتَلَوُّنُ السَّماءِ بِالألْوانِ الدّامِيَةِ ، حَتّى العَصْرِ ، فَهَدَأ كُلُّ شَيْءٍ ، وَعادَ البَحْرُ وَالسَّماءُ إلى سُكونِهِما ، وَانْزاحَ الإعْصارُ بَعيدًا ، فَأمَرَ الشَّيْخُ رَشْدانُ بَحّارَتَهُ بالرُّسُوّ عِنْدَ بَعْضِ الجُزُرِ القَريبَةِ عَلى ساحِلِ البَحْرِ الأحْمَرِ ، فَابْتاعَ مِنْ سُكّانِها الفاكِهَةَ الطّازَجَةَ وَالمِياهَ العَذْبَةَ ، ثُمَّ رَفَعَتِ السَّفينَةُ مَراسِيَها وَانْطَلَقَتْ مَرَّةً أخْرى تَجْري في قَلْبِ المِياهِ .

وَوَقَفَ السِّنْدبادُ مَكانَهُ فَوْقَ حاجِزِ السَّفينَةِ ، وَهُوَ يَقولُ لِنَفْسِهِ : « ها نَحْنُ أولاءِ نُبْحِرُ ثانِيَةً ، إلى حَيْثُ المَجْهولُ . »

وَلَمْ يُحِسّ باقْتِرابِ الشَّيْخِ رَشْدانَ مِنْهُ ، إلا عِنْدَما وَضَعَ يَدَهُ فَوْقَ كَتِفِهِ ، فَالْتَفَتَ إلَيْهِ صامِتًا ، وَتَأمَّلَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ بُرْهَةً ثُمَّ قالَ لَهُ : « إنَّني أقْرأُ ما يَجولُ في خاطِرِكَ ؛ فَهُوَ واضِحٌ في عَيْنَيْكَ ، وَأرى سُؤالَكَ

مَطْبوعًا في مُقْلَتَيْكَ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ دونَ إلْحاحٍ : « وَهَلْ مِنْ إجابَةٍ ، أمْ أنَّ الأَوانَ لَمْ يَحِنْ بَعْدُ ؟ »

أطْبَقَ الشَّيْخُ رَشْدانُ شَفَتَيْهِ عَنِ الرَّدِّ ، وَبَدا كَأَنَّهُ يُغالِبُ نَفْسَهَ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إلى السِّنْدِبادِ، وَأجابَهُ في صَوْتٍ حَنونٍ : « بَلْ آنَ الأوان ، يا سِنْدِبادُ ، فَلا تَجْزَعْ أوْ تَنْزَعِجْ مِمّا أوشِكُ أنْ أُخْبِرَكَ بِهِ مِنْ أمْرٍ ، قَدْ تَحْسِبُهُ الجُنونَ بِعَيْنِهِ . »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « سَوْفَ نُبْحِرُ ، بِإذْنِ اللهِ وَمَشيئَتِهِ ، إلى بِلادِ الجَليدِ !»

شَهِقَ السِّنْدِبادُ لِفَرْطِ المُفاجَأةِ ، وَحَسِبَ أنَّ سَمْعَهُ خانَهُ ، فَتَأمَّلَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ في صَمْتٍ حَزينًا ، ثُمَّ قالَ في أسًى : « كُنْتُ أظُنُّكَ أكْثَرَ جَسارَةً وَحُبًّا لِلْمُخاطَرَةِ ، مِمّا أراكَ عَلَيْهِ الآنَ ، وَلَكِنَّ الفارسَ الجَسورَ كَالْبَخورِ الجَيِّدِ ، لا تَظْهَرُ حَقيقَتُهُ إلا مَتى اقْتَرَبَ مِنَ الجَمْرِ المُتَّقِدِ ،

وَلَسَعَتْهُ حَرارَةُ النِّيرانِ . »

ابْتَلَعَ السِّنْدِبادُ لُعابَهُ في تَوَتُّرٍ ، وَتَمالَكَ زِمامَ نَفْسِهِ وَهُوَ يَقولُ : « وَلَكِنْ ، يا سَيِّدي ، هَذِهِ مُفاجَأَةٌ تامَّةٌ . أَرْضُ الجليدِ ! هَذا آخِرُ ما كُنْتُ أَتَخَيَّلُ أَنْ أَسْعى إِلَيْهِ !»

وَسَكَتَ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ في تَوَتُّرٍ أَشَدَّ : « وَلِماذا نُلْقي بِأَنْفُسِنا في جَحيمِ هَذِهِ الأَرْضِ ، أَيُّها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ ، وَلا شَيْءَ يُجْبِرُنا على ذَلِكَ ؟»

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « كَأَنّي أَشُمُّ رائِحَةَ الخَوْفِ تَفوحُ مِنْ كَلِماتِكَ الَّتي يَبْدو في ظاهِرِها النُّصْحُ . »

قالَ السِّنْدِبادُ مُراوِغًا : « إِنَّهُ الحِرْصُ عَلى الحَياةِ . فَالْخَوْفُ يُبْعِدُ الشَّرَّ عَنِ الإِنْسانِ . »

قالَ الشَّيْخُ : « وَالشَّجاعَةُ تُخَلِّصُهُ مِنَ الشَّرِّ ، فَلا يَعودُ ثَمَّةَ سَبَبٌ لِلْخَوْفِ بَعْدَ ذَلِكَ . »

قالَ السِّنْدِبادُ في ضيقٍ : « لَسْتُ أَرى غَيْرَ أَنَّنا نُلْقي بِأَنْفُسِنا إِلى التَّهْلُكَةِ . »

تَأَمَّلَهُ الشَّيْخُ ، وَكَأَنَّهُ يَسْتَشِفُّ أفْكارَهُ ، وَقالَ : « اِثْنانِ لا يَرَيانِ الحَقيقَةَ ، هُما الأعْمى وَالجَبانُ ، وَأراكَ كَسولاً تَخْشى المَشْيَ في الشَّمْسِ ؛ حَتّى لا تَتَكَبَّدَ مَشَقَّةَ جَرِّ ظِلِّكَ خَلْفَكَ ! »

احْتَدَّ السِّنْدِبادُ قائِلاً : « لَسْتُ جَبانًا أوْ كَسولاً . »

جاوَبَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ في سُخْرِيَةٍ : « إنَّكَ تَتَشَدَّقُ بِكَلِماتٍ كَثيرةٍ عَنِ الشَّجاعَة . وَكَلِماتُكَ في حَقيقَتِها مِثْلُ أوْراقِ شَجَرٍ كَثيفةٍ ، لا يُخْفي وَراءَهُ غَيْرَ ثَمَرٍ قَليلٍ . »

أَقَرَّ السِّنْدِبادُ بِخَشْيَتِهِ قائِلاً : « إذا كانَ في شَجاعَتي هَلاكي - فَبِئْسَ الشَّجاعَةُ ، فَكَلْبٌ حَيٌّ أفْضَلُ مِنْ لَيْثٍ مَيِّتٍ . »

أَجابَهُ الشَّيْخُ في سُخْرِيَةٍ أشَدَّ : « أنْ تَكونَ ذَيْلاً لِلَيْثٍ مَيِّتٍ أفْضَلُ مِنْ أنْ تَكونَ رَأسًا لِكَلْبٍ حَيٍّ . وَإذا صِرْتَ كَلْبًا لِمَرَّةٍ واحِدَةٍ ، فَلَنْ تَكُفَّ عَنِ النُّباحِ عُمْرَكَ كُلَّهُ ، مَهْما تَعْلُ مَكانَتُكَ . »

شَحَبَ وَجْهُ السِّنْدِبادِ ، وَرَكِبَهُ خَجَلٌ عَظيمٌ وَقالَ : « أَنْتَ عَلى حَقٍّ ، أَيُّها الشَّيْخُ ، وَلَسْتُ أَدْري كَيْفَ قُلْتُ ما قُلْتُهُ ، أَوْ كَيْفَ رَكِبَني هَذا الخَوْفُ الَّذي لَمْ أَشْعُرْ بِمِثْلِهِ في حَياتي لِشَيْءٍ مَجْهولٍ لَمْ أَرَهُ . »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ في رِقَّةٍ ، مُشْفِقًا عَلَيْهِ : « قَدْ يَكونُ الخَوْفُ واقِيًا لَنا وَعاصِمًا في بَعْضِ الأَحْيانِ ، بِشَرْطِ أَنْ لا يَسْبِقَ شَجاعَةَ المَرْءِ وَيَطْغى عَلَيْها ، فَلَيْسَ كُلُّ التَّهَوُّرِ شَجاعَةً ، ولا كُلُّ الإِقْدامِ جَسارَةً ، كَما أَنَّ الخَوْفَ لَيْسَ في مُعْظَمِهِ جُبْنًا . »

قالَ السِّنْدِبادُ وَهُوَ يُغالِبُ فُضولَهُ : « حَدِّثْني إِذَنْ عَنِ السَّبَبِ الَّذي يَجْعَلُكَ تَسْعى إِلى أَرْضِ الجَليد . »

قالَ الشَّيْخُ : « سَوْفَ أُخْبِرُكَ ، يا سِنْدِبادُ ، فَمِنْ حَقِّكَ أَنْ تَعْرِفَ ما دُمْتَ سَتُشارِكُني هَذِهِ الرِّحْلَةَ المُهْلِكَةَ . »

وَصَمَتَ طَويلاً دونَ أَنْ يَجْرُؤَ السِّنْدِبادُ عَلى اقْتِحامِ صَمْتِهِ . وَقالَ الشَّيْخُ أَخيرًا ، وَكَأَنَّهُ اسْتَجْمَعَ شَتاتَ قُواهُ

الخائِرَةِ :

« قَبْلَ اثْنَيْ عَشرَ عامًا كُنْتُ شَهْبَنْدَرَ التُّجّارِ في دِمَشْقَ، وَكانَ لي ثَراءٌ عَظيمٌ وَقصورٌ وَأمْوالٌ لا حَصْرَ لَها ، وَكانَتْ لي سُفُنٌ عَديدَةٌ تَجوبُ الآفاقَ مُحَمَّلَةً بِالبَضائِعِ ، فَيَبيعُ وُكَلائي وَأُجَرائي البَضائِعَ ، ويشْتَرونَ غَيْرَها مِنْ بِلادِ الصِّيْنِ وَالهِنْدِ وَالخَليجِ العَرَبِيِّ ، وَحَتّى مِنَ الأحْباشِ ، فَتَضاعَفَتْ أمْوالي ، حَتّى صِرْتُ لا أجِدُ مَوْضِعًا لَها ، وَصِرْتُ أُفَرِّقُ مِنْها لِلنّاسِ وَأبْتَني لَهُمُ البُيوتَ وَالمَنازِلَ وَأكْسوهُمْ وَأُوَزِّعُ عَلَيْهِمُ الهِباتِ . وَلَكِنْ ، ذاتَ يَوْمٍ لا تَزالُ ذِكْراهُ مَحْفوظَةً في عَقْلي ، ماتَتْ زَوْجَتي بِسَبَبِ مَرَضٍ مُفاجِئٍ لَمْ يُمْهِلْها طَويلاً . »

وَ ابْتَلَّتْ عَيْنا الشَّيْخِ رَشْدانَ بِالدُّموعِ ، وَقالَ : « لَمْ أَحْزَنْ عَلى إنْسانٍ قَدْرَ حُزْني عَلى فِراقِها ، فَقَدْ كانَتْ نِعْمَ الزَّوْجَةُ والأخْتُ وَالأُمُّ ، وَبِمَوْتِها صِرْتُ لا أُطيقُ قَصْري وَلا الدَّكاكينَ وَلا تِجارَتي ، فَكَأنَّها كُلَّها تُذَكِّرُني بِها ، فَفَكَّرْتُ في السَّفَرِ والتَّرْحالِ ، عَسى أنْ يُخَفِّفَ ذَلِكَ مِنْ

أَوْجاعي . وَكانَتْ لِيَ ابْنَةٌ وَحيدَةٌ تُدْعى عَنْبَر ، تَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ ثَلاثَةَ أعْوام ، فَاصْطَحَبْتُها في رِحْلاتي ، بَعْدَ أنْ وَزَّعْتُ كُلَّ ما أمْلِكُ في بِلادي عَلى الفُقَراءِ وَالْمُعْوَزينَ . وَأخَذْتُ أجوبُ البِلادَ وَالبِحارَ وَالْمُحيطاتِ ، وَأزورُ كُلَّ مَكانٍ ، فَصِرْتُ خَبيرًا بِأمورِ البَحْرِ وَقِيادَةِ السُّفُنِ مِثْلَ أمْهَرِ رُبّانٍ ، وَعَرَفْتُ مِنَ البِلادِ وَالعِبادِ واللُّغاتِ ما لَمْ أكُنْ أتَخَيَّلُ وُجودَهُ في العالَمِ . »

رَمَقَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ ، وَقَدْ بَدا لَهُ مَهيبًا جَليلَ الشَّأنِ ، في مَنْزِلَةِ العُلَماءِ . وَ واصَلَ الشَّيْخُ في صَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ :

« وَمَرَّتْ خَمْسُ سَنَواتٍ وَكَبِرَتِ ابْنَتي عَنْبَر وَصارَ لَها مِنَ العُمْرِ ثَماني سَنَواتٍ ، وَصارَتْ عِنْدي أغْلى مِنَ الدُّنْيا وما فيها، وَأصْبَحْتُ لا أطيقُ فِراقَها ، وَأَصْحَبُها في أسْفاري الدّائِمَةِ ، وَكُنْتُ لابْنَتي بِمَثابَةِ الأَبِ والأمِّ والأخِ ، إلى أنْ جاءَ يَوْمٌ لَمْ تَطْلُعْ لَهُ شَمْسٌ . »

وَأَمْسَكَ الشَّيْخُ رَشْدانُ دُموعَهُ ، وَ واصَلَ في تَجَلُّدٍ :

« كُنْتُ أُبْحِرُ في ثَلاثٍ مِنْ سُفُني مُحَمَّلَةٍ بالبَضائِعِ وَالأَعْوانِ ، عِنْدَما هاجَمْنا بَغْتَةً بِضْعٌ مِنْ سُفُنِ القَراصِنَةِ ، يَرْأسُهُمْ قُرْصانٌ حَبَشِيٌّ يُلَقِّبونَهُ بالأسْوَدِ . وَكانَ هَذا القُرْصانُ وَحْشًا دَمَويًا لا تَأْخُذُهُ رَأفَةٌ وَلا شَفَقَةٌ بِإنْسانٍ ، وَلَمْ تَكُنْ سُفُني مُجَهَّزَةً لِلْقِتالِ أوْ صَدِّ العُدْوانِ ، فَسَقَطَتْ كُلُّها أسيرَةَ قَبْضَةِ القُرْصانِ السَّفّاحِ ، وَأرَدْتُ الخُروجَ بِأقَلِّ الخَسائِرِ المُمْكِنَةِ ، وَحِمايَةَ أرْواحِ أتْباعي وَابْنَتي ، فَعَرَضْتُ عَلى القُرْصانِ الأسْوَدِ أنْ يَسْتَوْلِيَ عَلى سُفُنِنا الثَّلاثِ ، بِما تَحْمِلُ مِنْ بَضائِعَ وَنَفائِسَ ، عَلى أنْ يَقومَ بِإنْزالِنا سالِمينَ فَوْقَ أَقْرَبِ أَرْضٍ ، خالِيِّينَ الوِفاضَ ، وَلَكِنَّ القُرْصانَ السَّفّاحَ سَخِرَ مِنّي وَأمَرَ بِإلْقائِنا في البَحْرِ ، لِتَأْكُلَنا أَسْماكُهُ . »

سَأَلَ السِّنْدِبادُ مُنْزَعِجًا : « وَهَلْ غَرِقَ كَثيرٌ مِنْكُمْ ؟ »

قالَ الشَّيْخُ وَالعَبَراتُ تَخْنُقُهُ : « كُنْتُ أنا النّاجِيَ الوَحيدَ ، وَلا أدْري إنْ كانَ ذَلِكَ لِحُسْنِ حَظّي ، أمْ لِسوئِهِ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ في تَلَهُّفٍ : « وَابْنَتُكَ ؟ »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِحُزْنٍ : « كانَتْ عَنْبَر هِيَ الوَحيدَةَ الَّتي لَمْ يُلْقِ بِها القُرْصانُ في اليَمِّ ، واحْتَفَظَ بِها أسيرَةً لَدَيْهِ مَعَ أطْفالٍ آخَرينَ اخْتَطَفَهُمْ مِنْ سُفُنٍ عَديدَةٍ ، وَلا أدْري ماذا فَعَلَ بِهِمْ ، أوْ ماذا كانَ مَصيرُهُمْ . وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمْ تَقَعْ عَيْني عَلى ابْنَتي . »

سَأَلَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ : « أ لَمْ تُحاوِلِ البَحْثَ عَنْ عَنْبَر خِلالَ تِلْكَ السَّنَواتِ السَّبْعِ الماضِيَةِ ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ بِمَرارَةٍ : « بَلْ لَمْ يَعُدْ لي مِنْ هَدَفٍ في حَياتي بَعْدَ ذَلِكَ الحادِثِ ، سِوى مُطارَدَةِ هَذا القُرْصانِ ، فَصِرْتُ أتَتَبَّعُهُ مِنْ ميناءٍ لِميناءٍ ، وَمِنْ بَحْرٍ إلى مُحيطٍ ، وَمِنْ جَزيرَةٍ لِمَرْفَأ ، وَأنا أعْمَلُ كَأجيرٍ فَوْقَ السُّفُنِ المُخْتَلِفَةِ لِكَيْ أُدَبِّرَ نَفَقاتِ تَرْحالي ، وَلَمْ يَكُنْ لي مِنْ أمَلٍ سِوى مُصادَفَةِ القُرْصانِ الأَسْوَدِ لأعْرِفَ مِنْهُ مَصيرَ ابْنَتي ، وَلِتَكونَ نِهايَتُهُ عَلى يَدَيَّ وَلَوْ كانَ في ذَلِكَ هَلاكي . وَلَكِنَّ كُلَّ ما فَعَلْتُهُ كانَ دونَ جَدْوى ، فَما كُنْتُ أكادُ

أصِلُ لِميناءٍ حَتّى أجدَهُ قَدْ غادَرَهُ تَوًّا ، وَما أكادُ أَلْحَقُ بِهِ فَوْقَ جَزيرَةٍ حَتّى يَسْبِقَني في مُغادَرَتِها ، فَكَأَنَّ القَدَرَ يَسْخَرُ مِنّي وَيَزيدُ مِنْ إيلامي ، أوْ كَأَنَّني أطارِدُ شَبَحًا ، لا واحِدًا مِنْ بَني البَشَرِ . »

وَصَمَتَ الشَّيْخُ رَشْدانُ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ : « وَقَبْلَ شُهورٍ عَلِمَ الخَليفَةُ بِأمْري، وَأشْفَقَ عَلَيَّ، فَمَنَحَني سَفينَةً كَبيرَةً، لِتَكونَ تَحْتَ إمْرَتي ، وَ وَهَبَني مالاً كَثيرًا لأسْتَأْجِرَ بِهِ البَحّارَةَ اللازمينَ لِلإبْحارِ . وَخِلالَ ذَلِكَ الوَقْتِ عَلِمْتُ أنَّ القُرْصانَ الأسْوَدَ قَدِ اتَّجَهَ إلى أرْضِ الجَليدِ وَاسْتَقَرَّ هُناكَ لِسَبَبٍ لا أدْريهِ ، فَعَزَمْتُ عَلى اللَّحاقِ بِهِ ، مَهْما كَلَّفَني ذَلِكَ مِنْ مالٍ وَجَهْدٍ . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ بِعَيْنَيْنِ مُتَّسِعَتَيْنِ : « وَ ما الَّذي مَنَعَكَ مِنَ السَّعْيِ خَلْفَ هَذا القُرْصانِ السَّفّاحِ الشُّهورَ الماضِيَةَ ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ حَزينًا : « إنَّهُمُ البَحّارَةُ ، فَما يَكادون يَعْلَمونَ بِغَرَضي حَتّى يَصِفوني بِالْجُنون ، وَاسْتَحالَ عَلَيَّ أنْ أجِدَ مَنْ يُبْحِرُ مَعي إلى أرْضِ الجَليدِ . وَكانَ مُسْتَحيلاً

أنْ أقودَ سَفينَتي وَحْدي . وَبَعْدَ وَقْتٍ اسْتَقرَّ رَأْيي عَلى اسْتِخْدامِ أولَئِكَ البَحّارَةِ مِنَ البَصْرَةِ دونَ أنْ أُخْبِرَهُمْ عَنْ وُجْهَتي ، حَتّى لا أفْقِدَهُمْ كالآخَرينَ . »

وَ وَضَعَ الشَّيْخُ رَشْدانُ يَدَهُ فَوْقَ كَتِفِ السِّنْدِبادِ مُواصِلاً : « لَقَدْ ساقَني إلَيْكَ حاجَتي إلى شابٍّ جَسورٍ ، يَكونُ سَنَدي وَعَضُدي وَقْتَ الشَّدائِدِ ، عِنْدَما ألاقي القُرْصانَ السَّفّاحَ وأسْتَرِدُّ مِنْهُ ابْنَتي . وَقادَتْني غَريزَتي إلى بَغْدادَ في ذَلِكَ الزُّقاقِ ، وَقادَكَ القَدَرُ إلَيَّ . فَكانَ لَكَ فِيَّ الخَلاصُ مِنْ جُنودِ الوَزيرِ ، وَكان لي فيكَ أمَلي الأخيرُ بِبُلوغِ مُرادي وَاسْتِعادَتي ابْنَتِيَ الوَحيدَةَ الحَبيبَةَ . وَقَدْ أسْعَدَني الحَظُّ بِكَ ، أيُّها الفَتى الجَسورُ . »

وَشَرَدَ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِبَصَرِهِ إلى الأُفُقِ البَعيدِ ، حَزينًا مَوْجوعًا ، فَأوْشَكَتِ العَبَراتُ أنْ تَطْفِرَ مِنْ عَيْني السِّنْدِبادِ إشْفاقًا ، وَقَد انْكَشَفَ لَهُ سِرُّ رَفيقِهِ أخيرًا ، وَالدّافِعُ الَّذي يَسوقُهُ إلى تِلْكَ الأرْضِ المَجْهولَةِ دونَ هَوادَةٍ ، وَأيُّ نارٍ كانَتْ تَشْتَعِلُ في قَلْبِهِ طَوالَ سَنَواتٍ ، دونَ أنْ يَشْكوَ

لَهيبَها لإنسانٍ !

وَأَفاقَ عَلى صَوْتِ الشَّيْخِ وَهُوَ يقولُ لَهُ : « وَلَكِنّي الآنَ أَشْعُرُ أَنَّني أَسوقُكَ إلى ما لا تَرْغَبُ ، وَأَنَّهُ لا ذَنْبَ لَكَ في كُلِّ ما جَرى لي وَثَأْري المَحْتوم ، وَلَيْسَ مِنْ حَقّي أَنْ أَسوقَكَ إلى التَّهْلُكَةِ اسْتِغْلالاً لِمِحْنَةِ هُروبِكَ مِنْ بَغْدادَ رَغْمًا عَنْكَ، فَإِنْ شِئْتَ ، أَيُّها الفَتى ، رَسَوْتُ بِسَفينَتي عِنْدَ أَقْرَبِ أَرْضٍ ، وَأَنْزَلْتُكَ مِنْها ، فَتَعودُ إلى بِلادِكَ ، أَوْ تَخْتارُ لَكَ أَرْضًا أُخْرى لا يُحْدِقُ بِكَ فيها خَطَرٌ أَوْ يُطارِدُكَ فيها جُنْدٌ ، فَتَحْيا فيها آمِنًا ، إلى أَنْ يَشاءَ اللهُ . »

هَتَفَ السِّنْدِبادُ في الشَّيْخِ رَشْدانَ : « ماذا تَقولُ ، يا سَيِّدي ، وَكَيْفَ تُفَكِّرُ في مِثْلِ ذَلِكَ الخاطِرِ ؟ لَسْتُ أُنْكِرُ أَنَّني في البِدايَةِ كُنْتُ مُتَخَوِّفًا مِنْ رِحْلَتِكَ المَجْهولَةِ وَأَرْغَبُ في عَدَمِ المُشارَكَةِ فيها بِأَيِّ ثَمَنٍ ، وَلَكِنّي الآنَ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكْتَ غَرَضَكَ النَّبيلَ ، فَلَنْ أُفارِقَكَ لَحْظَةً واحِدَةً حَتّى نُتِمَّ مُهِمَّتَنا ، مَهْما تَكُنِ المَخاطِرُ الَّتي تَعْتَرِضُنا أَوْ أَسْبابُ المَوْتِ الَّتي تَنْتَظِرُنا . »

احْتَضَنَ الشَّيْخُ رَشْدانُ السِّنْدِبادَ في قُوَّةٍ ، وَقالَ لَهُ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : « هَذا صَنيعٌ لَنْ أنْساهُ لَكَ أبَدًا ، أيُّها الفَتى الشُّجاعُ . وَلَوْ كانَ لِيَ ابْنٌ ، ما أحْبَبْتُهُ أكْثَرَ مِمّا أحْبَبْتُكَ . »



فَتَرَقْرَقَتِ الدُّموعُ في عَيْني السِّنْدِبادِ تَأَثُّرًا ، وَصارَ يَتَطَلَّعُ إلى الأُفُقِ البَعيدِ ، وَكَأَنَّهُ يَتَعَجَّلُ الوُصولَ إلى أرْضِ الجَليدِ ، وَقَدْ تاقَتْ نَفْسُهُ إلى ارْتِيادِها وَالمُغامَرَةِ فيها ، مَهْما تَكُنْ مَخاطِرُها الجَمَّةُ .

الفَصْلُ الخامِسُ
أَرْضُ الأَهْوالِ

اتَّخَذَتِ السَّفينَةُ طَريقَها إلى المُحيطِ الهِنْدِيِّ تَدْفَعُها رياحٌ مَوْسِمِيَّةٌ هادِئَةٌ ، وَتَوَقَّفَتْ أمامَ شَواطِئِ الهِنْدِ ، فَأَدْهَشَ السِّنْدِبادَ ثَراءُ بَعْضِ أهْلِها الفاحِشُ مِمَّنْ كانوا يَقْتَنونَ الوُحوشَ لِلتَّسْلِيَةِ ، وَفَقْرُ أغْلَبِ سُكّانِها . وَزادَ عَجَبُهُ مِنْ مَناظِرِ مَعابِدِهِمُ الفاخِرَةِ ، وَغُموضِ كَهَنَتِها .

وَشاهَدَ عَجَبًا في الأسْواقِ مِنَ الحُواةِ الَّذينَ يَأْكُلونَ النّارَ ، وَيَسيرونَ فَوْقَ الزُّجاجِ وَجَمَراتِ النّارِ ، وَيَرْقُدونَ فَوْقَ فِراشٍ تَبْرُزُ مِنْهُ أسِنَّةٌ مُدَبَّبَةٌ في حِدَّةِ السَّكاكينِ .

وَبَعْدَها أبْحَرَتِ السَّفينَةُ شَرْقًا حَتّى بَلَغَتْ بِلادَ الصّينِ ، فَمَكَثَ السِّنْدِبادُ عَلى شَواطِئِها يَوْمَيْنِ أيْضًا ، يَتَجَوَّلُ في أَسْواقِها بِصُحْبَةِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، فَكانَ يَعْجَبُ مِنْ كُلِّ ما

تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْناهُ مِنْ عاداتٍ وَلَهَجاتٍ في الحَديثِ ، وَملابِسَ غَريبَةٍ ، وَأَنْواعٍ مِنَ الأَطْعِمَةِ لَمْ يَأْلَفْها ، وَمَنازِلَ عَجيبَةِ الشَّكْلِ مُشَيَّدَةٍ مِنَ الأَخْشابِ وَالوَرَقِ المُلَوَّنِ ، تُضيئُها مَصابيحُ زَيْتِيَّةٌ تُحيطُها كُراتٌ مِنَ الوَرَقِ لا تَشْتَعِلُ .

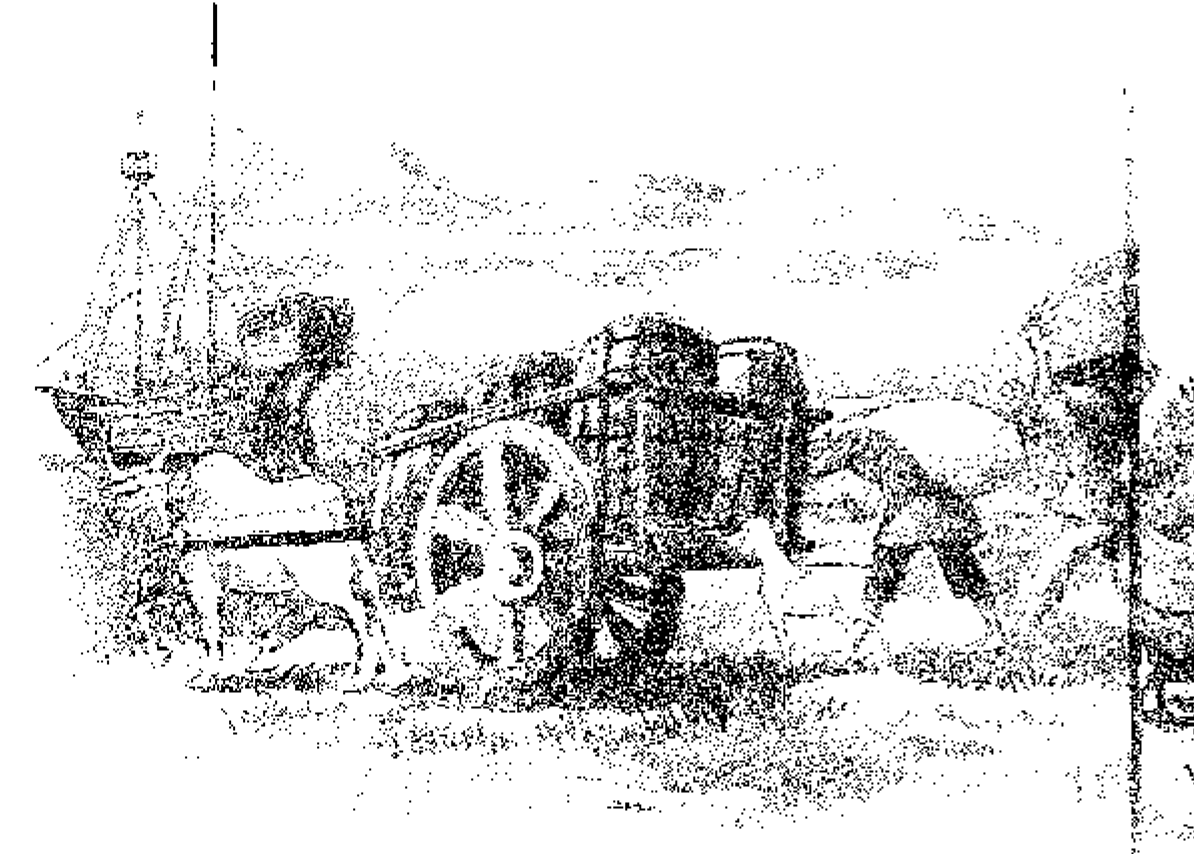
وَشاهَدَ في السّاحاتِ مُقاتِلينَ عَلى دَرَجَةٍ بالِغَةٍ مِنَ المَهارَةِ في القِتالِ ، دونَ اسْتِعْمالِ أيِّ سِلاحٍ . وَكانَ الشَّيْخُ رَشْدانُ عَليمًا بِلُغَةِ أَهْلِ البِلادِ ، فَحادَثَهُمْ



وَحادَثوهُ ، وَابْتاعَ مِنْهُمْ كُلَّ ما يَلْزَمُ رِحْلَتَهُ .

وَ واصَلَتِ السَّفينَةُ إِبْحارَها في اتِّجاهِ الشَّمالِ الشَّرْقِيِّ إلى بِلادِ هايانَ (اليابان) ، الَّتي يَسْكُنُها قَوْمٌ قِصارُ القامَةِ صُفْرُ الوُجوهِ صِغارُ العُيونِ ، عَلى دَرَجَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ المَعْرِفَةِ وَالحَضارَةِ ، يَحْكُمُهُمْ إِمْبراطورٌ عَظيمُ الشَّأْنِ .

وَبَعْدَها أَلْقَتِ السَّفينَةُ مَراسيَها في عَدَدٍ مِنَ الجُزُرِ ، حَيْثُ كانَ الشَّيْخُ رَشْدانُ يُبادِلُ إِحْدى جَواهِرِهِ بِعَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الأَغْنامِ الحَيَّةِ وَسِلالِ الفاكِهَةِ وَالخَضْراواتِ الطّازَجَةِ ،



وَالدَّقيقِ وَبَراميلِ المِياهِ العَذْبَةِ ، وَفي آخِرِ ميناءٍ راحَ الشَّيْخُ يُكَدِّسُ سِلالَ الفاكِهَةِ ، وَالمِياهَ ، وَالأَغْنامَ ، فَأَدْرَكَ السِّنْدِبادُ أَنَّهُ لا تَزالُ أَمامَهُمْ رِحْلَةٌ شاقَّةٌ طَويلَةٌ إِلى أَرْضِ الجَليدِ .

وَاسْتَمَرَّتِ السَّفينَةُ في إِبْحارِها بَعْدَ مُغادَرَتِها بِلادَ هايان مُدَّةَ شَهْرٍ كامِلٍ ، وَقَدْ بَدَأَ الجَوُّ يَزْدادُ بُرودَةً ، وَأَخَذَتْ تَهُبُّ عَلى السَّفينَةِ وَبَحّارَتِها رِياحٌ قارِسَةُ البُرودَةِ ، وَأَخَذَ الثَّلْجُ يَتَساقَطُ مِنَ السَّماءِ في شَكْلِ كُراتٍ صَغيرَةٍ . وَكانَ المَشْهَدُ بَديعًا فَأَخَذَ السِّنْدِبادُ يُراقِبُهُ ، بِرَغْمِ إِحْساسِهِ البالِغِ بِالبَرْدِ . وَكانَتْ مُشْكِلَةُ البَحّارَةِ الوَحيدَةُ هِيَ البَرْدَ القارِسَ الَّذي لَمْ يَتَعَوَّدوهُ ، فَأَمَرَهُمُ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِذَبْحِ الخِرافِ الحَيَّةِ ، وَحِياكَةِ صوفِها وَجُلودِها كَأَرْدِيَةٍ تَقيهِمْ مِنْ شَرِّ البُرودَةِ . أَمّا لُحومُ الخِرافِ فَلَمْ يَكُنْ يَخْشى مِنْ فَسادِها بِسَبَبِ بُرودَةِ الطَّقْسِ ، الَّذي يَقْرُبُ مِنَ التَّجَمُّدِ .

وَسَأَلَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ ، وَالطَّقْسُ يَزْدادُ بُرودَةً كُلَّ يَوْمٍ : « هَلْ تَبْقى الكَثيرُ مِنْ رِحْلَتِنا ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « إنَّ وُجْهَتَنا الأخيرَةَ هِيَ بلادُ قَوْمٍ يُدْعَوْنَ (الإسْكيمو) ، وَأَمامَنا أُسْبوعانِ حَتَّى نَبْلُغَ شَواطِئَ البِلادِ ، وَنَجْتازَ أنْهارَها . »

فَقالَ السِّنْدِبادُ مُحَدِّثًا نَفْسَهُ ، وَهُوَ يُقْفِلُ مَلابِسَهُ عَلى نَفْسِهِ : « فَما الحالُ في تِلْكَ البِلادِ ، إذا كانَ الطَّقْسُ تِلْكَ البُرودَةَ ، وَنَحْنُ لَمْ نَبْلُغْ مَحَطَّتَنا الأخيرَةَ بَعْدُ ؟»

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ رَشْدانُ وَقالَ : « لَقَدْ قَطَعْنا نِصْفَ الأرْضِ في إبْحارِنا ، يا سِنْدِبادُ ، وَجُبْنا مَناطِقَ شَديدَةَ الحَرارَةِ ، إلى بِلادٍ شَديدَةِ البُرودَةِ ، وَقابَلْنا أَجْناسًا وَأشْكالاً مِنَ البَشَرِ ، لَمْ تَحْلُمْ بِوُجودِهِمْ أبدًا . فَما رَأْيُكَ في كُلِّ ما صادَفْناهُ ؟»

أَجابَهُ السِّنْدِبادُ وَقَدِ الْتَمَعَتْ عَيْناهُ بِبَريقِ المُغامَرَةِ وارْتِيادِ المَجْهولِ : « لَيْسَ أَرْوَعَ مِنَ السَّفَرِ وَالتَّرْحالِ وَمُشاهَدَةِ البِلادِ وَالنَّاسِ، فَسُبْحانَ اللهِ الَّذي جَعَلَ مِنْ آياتِهِ الاخْتِلافَ بَيْنَ النَّاسِ وَالأرْضِ وَالبَحْرِ ، وَحَتَّى طُيورِ السَّماءِ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّني بَعْدَ كُلِّ ما رَأَيْتُهُ سَوْفَ أَرْتَحِلُ كَثيرًا

في كُلِّ البلادِ ، مَتى عُدْتُ لِبَغْدادَ ، وَسَيَصيرُ البَحْرُ بِساطي وَأشْرِعَةُ السُّفُنِ رايَتي ، وَنُجومُ السَّماءِ مُرْشِدي . »

* * *

وَمَرَّ أُسْبوعانِ كأنَّهُما شَهْرانِ ، بِسَبَبِ بُرودَةِ الطَّقْسِ الَّتي أخَذَتْ في الزِّيادَةِ ، فَزادَ الجَميعُ مِنْ ثِقْلِ مَلابِسِهِمْ ، وَصَنَعوا لأَيْديهِمْ قَفافيزَ وَلأقْدامِهِمْ أحْذِيَةً مِنْ صوفِ الخِرافِ . وَفَجْأةً لاحَ عَلى البُعْدِ في قَلْبِ المِياهِ ، جَبَلٌ شاهِقٌ عَظيمُ الارْتِفاعِ ، في لَوْنِ الثَّلْجِ النّاصِعِ ، فَصاحَ السِّنْدِبادُ مَبْهورًا : « سُبْحانَ الله ، جَبَلٌ لَهُ لَوْنُ الثَّلْجِ ، في قَلْبِ المِياهِ ؟»

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « بَلْ هُوَ جَبَلٌ مِنَ الثَّلْجِ بِالفِعْلِ . »

رَدَّدَ السِّنْدِبادُ في ذُهولٍ : « جَبَلٌ مِنْ الثَّلْجِ . . هَذا أعْجَبُ ما رَأيْتُ . . إنَّهُ ضَخْمٌ جِدًّا . »

قالَ الشَّيْخُ مُبْتَسِمًا : « ماذا سَتَقولُ إذَنْ لَوْ عَرَفْتَ أَنَّ ما يَبْدو مِنْ هَذا الجَبَلِ لِلْعُيونِ لَيْسَ سِوى جُزْءٍ مِنْ ثَمانِيَةِ

أجْزاءٍ مِنْ حَجْمِهِ ، فَإنَّ بَقِيَّتَهُ تَخْتَفي تَحْتَ سَطْحِ الماءِ ، وَلا يَطْفو مِنْها غَيْرُ ذَلِكَ الجُزْءِ اليَسير ، وَيَتَغَيَّرُ حَجْمُ هَذِهِ الجِبالِ الثَّلْجِيَّةِ بِاسْتِمْرارِ حَرَكَتِها ، فَتَنْقُصُ أوْ تَزيدُ حَسَبَ الأحْوالِ . »

لَبِثَ السِّنْدِبادُ يُراقِبُ جِبالَ الثَّلْجِ حَوْلَهُ بِعَيْنَيْنِ واسِعَتَيْنِ وَكَأَنَّهُ يَسْتَجْلي أسْرارَها ، ثُمَّ تَطَلَّعَ إلى الأُفُقِ البَعيدِ مُراقِبًا السَّماءَ والشَّمْسَ الغارِبَةَ ، وَقالَ : « إنَّني أُلاحِظُ أنَّنا كُلَّما تَقَدَّمْنا صَوْبَ الشَّمالِ صارَ النَّهارُ أقْصَرَ ، وَالشَّمْسُ لا تَلْبَثُ أكْثَرَ مِنْ ساعَةٍ أوِ اثْنَتَيْنِ في قَلْبِ السَّماءِ ، وَأشِعَّتُها بارِدَةٌ ، كَأنَّها مَرْسومَةٌ في كَبِدِ السَّماءِ المُلَبَّدِ بِالْغُيومِ الثَّقيلَةِ . »

أجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ بِلَهْجَةٍ يَفوحُ مِنْها بَعْضُ القَلَقِ : « هَذا لأنَّنا عَلى أعْتابِ الشِّتاءِ ، وَأرْجو ألا تَتَجَمَّدَ مِياهُ البَحْرِ حَوْلَنا ، قَبْلَ أنْ نَصِلَ إلى غايَتِنا . »

سَألَ السِّنْدِبادُ : « هَلْ سَيَتَجَمَّدُ البَحْرُ حَوْلَنا ؟ »

أجابَهُ الشَّيْخُ في أناةٍ : « بَلْ إنَّهُ يَتَحَوَّلُ إلى مِرْآةٍ

مَصْقولَةٍ مِنَ الجَليدِ الشَّديدِ الصَّلابَةِ . »

تَساءَلَ السِّنْدِبادُ في حَيْرَةٍ : « كَيْفَ سَنُبْحِرُ بَعْدَها ؟»

أجابَهُ الشَّيْخُ ضاحِكًا : « سَنَكونُ مُضْطَرّينَ لِتَرْكِ السَّفينَةِ ، وَالبَحْثِ عَمَّنْ يَبيعُنا زَحّافَةً بِكِلابِها ، فَهِيَ الوَسيلَةُ الوَحيدَةُ لِلتَّجْوالِ فَوْقَ الجَليدِ ، وَبَعْدَها يُمْكِنُكَ أَنْ تُقْسِمَ صادِقًا ، أَنَّكَ سِرْتَ فَوْقَ مِياهِ البَحْرِ ، دونَ أَنْ تَكونَ كاذِبًا . »

عادَ السِّنْدِبادُ يَسْأَلُ في إِلْحاحٍ : « وَهَلْ تَجُرُّ الكِلابُ الأَشْياءَ هُناكَ مِثْلَ الخُيولِ في بِلادِنا ؟»

أَجابَهُ الشَّيْخُ : « إِنَّها كِلابٌ مِنْ نَوْعٍ خاصٍّ شَديدِ التَّوَحُّشِ ، تَعْوي كَالذِّئابِ ، وَلا تَنْبَحُ مِثْلَ بَقِيَّةِ الكِلابِ ، وَيَحْتاجُ كُلٌّ مِنْها إلى قَدْرٍ مِنَ اللَّحْمِ ، أَكْثَرَ مِمّا يَحْتاجُهُ صاحِبُها ، وَإِذا لَمْ يُقَيِّدْها جَيِّدًا في سُروجِها ، هاجَمَتْهُ وَالْتَهَمَتْهُ وَلَمْ تَتْرُكْ مِنْهُ سِوى العِظامِ . »

وَاسْتَدارَ السِّنْدِبادُ عائِدًا إِلى قَمْرَتِهِ في صَمْتٍ ، مُفَكِّرًا

فِي كُلِّ ما سَمِعَهُ مِنْ غَرائِبَ وَعَجائِبَ ، وَقَدْ أَخَذَهُ البَرْدُ الشَّديدُ ، فَوَقَعَ بَصَرُهُ عَلى جَبَلٍ ثَلْجِيٍّ عائِمٍ ، يوشِكُ أَنْ يَنْقَضَّ على السَّفينَةِ مِنَ الخَلْفِ ، وَيُهَشِّمَها ، فَصَرَخَ بِأَعْلى صَوْتِهِ ، وَانْدَفَعَ إلى حِبالِ أَشْرِعَةِ السَّفينَةِ ، يَجْذِبُها لِيُغَيِّرَ اتِّجاهَها . وَأَدْرَكَ البَحّارَةُ الزُّنوجُ ما يَحيقُ بِهِمْ مِنْ خَطَرٍ دونَ تَنْبيهٍ ، فَانْدَفَعوا يَتَسَلَّقونَ الأَشْرِعَةَ كَالقُرودِ الماهِرَةِ ، وَأَداروها بِسُرْعَةٍ لِتَسْتَقْبِلَ الرّيحَ مِنِ اتِّجاهٍ مُخالِفٍ ، فَغَيَّرَتِ السَّفينَةُ اتِّجاهَها في اللَّحْظَةِ الأَخيرَةِ ، وَمَسَّتْ طَرَفَ جَبَلِ الجَليدِ في صَوْتٍ مُدَوٍّ ، وَتَهَشَّمَتْ بَعْضُ أَخْشابِ الحاجِزِ ، ثُمَّ انْفَلَتَتْ مُبْتَعِدَةً ، فَتَنَفَّسَ السِّنْدِبادُ الصُّعَداءَ ، وَقال في ارْتِياحٍ : « الحَمْدُ للهِ ! »

وَأَسْرَعَ بِإِصْلاحِ الحاجِزِ فَأَعادَهُ كَما كانَ . وَمِنْ بَعيدٍ لاحَتْ أَرْضٌ تَكْسوها بَعْضُ الأَشْجارِ المُغَطّاةِ بِالثُّلوجِ ، وَبَعْضُ الحَشائِشِ وَالطَّحالِبِ ، فَصَرَخَ السِّنْدِبادُ بِفَرْحَةٍ : « لَقَدْ وَصَلْنا لِلأَرْضِ . »

انْدَفَعَ الشَّيْخُ رَشْدانُ إلى الحاجزِ ، وتَأمَّلَ الشَّاطِئَ البَعيدَ ، ولَهَثَ بِفَرْحَةٍ قائِلاً : « إنَّها كَما وَصَفَها أَبي تَمامًا ، ورَسَمَ مَكانَها فَوْقَ الخَرائِطِ في كِتابِهِ ، الَّذي أَوْدَعَهُ سِرًّا لَدَيَّ ، وَقَدْ بَيَّنَ فيها أنَّ هُناكَ نَهْرًا قَريبًا ، عَلَيْنا عُبورُهُ ، لِنَصيرَ في قَلْبِ أَرْضِ الإسْكيمو ، وَعَلَيْنا بُلوغَهُ قَبْلَ حُلولِ الظَّلامِ . »

وَلَكِنَّ اللَّيْلَ أَطْبَقَ عَلى المَكانِ سَريعًا ، فَصارَ ظَلامًا حالِكًا لا يَلْمَعُ فيهِ شَيْءٌ ، سِوى النُّجومِ البَعيدَةِ .

وَقالَ السِّنْدِبادُ لِلشَّيْخِ رَشْدانَ : « عَلَيْنا بِالرُّسُوِّ على الشّاطِئِ ، وَالمَبيتِ حَتّى الصَّباحِ ، ثُمَّ نُواصِلُ إبْحارَنا عِنْدَ شُروقِ الصَّباحِ . »

وَلَكِنَّ الشَّيْخَ قالَ قَلِقًا : « مَنْ يُدْرينا ؟ قَدْ يَتَجَمَّدُ البَحْرُ لَيْلاً . لا وَقْتَ لَدَيْنا ، وَعَلَيْنا العُثورُ عَلى مَصَبِّ النَّهْرِ القَريبِ في أَسْرَعِ وَقْتٍ ، وَإلا وَقَعْنا في مِصْيَدَةٍ لا فِكاكَ مِنْها ، فَهَذا البَحْرُ إذا تَجَمَّدَ حَوْلَنا ، ضَغَطَ عَلى سَفينَتِنا وَهَشَّمَها بِضَغْطِهِ ، فَيُحَوِّلُها إلى أَلْواحٍ مُتَناثِرَةٍ مِنَ

الأَخْشابِ . »

أخَذَ البَحّارَةُ المُجْهَدونَ يَعْمَلونَ دونَ شَكْوى ، وَقَدْ أوْشَكوا عَلى التَّجَمُّدِ مِنَ البَرْدِ . وَعِنْدَ الفَجْرِ ظَهَرَ مَصَبُّ النَّهْرِ أمامَهُمْ ، فَأسْرَعوا بِاجْتِيازِهِ في تَهْليلٍ وَفَرْحَةٍ .

وَقالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ لِلسِّنْدِبادِ : « لا خَوْفَ الآنَ ، فَقَدْ صِرْنا في قَلْبِ أرْضِ الجَليدِ ، وَعَلَيْنا بِالحُصولِ عَلى بَعْضِ الرّاحَةِ ، قَبْلَ شُروقِ شَمْسِ الصَّباحِ . »

وَأَمَرَ بَحّارَتَهُ فَانْقَسَموا لِفَريقَيْنِ يَتَناوَبانِ العَمَلَ وَالرّاحَةَ . وَأَوى الشَّيْخُ وَالسِّنْدِبادُ إلى قَمْرَتَيْهِما ، وَغَرِقا في نَوْمٍ عَميقٍ . ثُمَّ اسْتَيْقَظا في الصَّباحِ عَلى صُراخٍ عَنيفٍ ، وَخَرَجا فَوَجَدا البَحّارَةَ وَقَدْ بَدا عَلَيْهِمُ الذُّهولُ ، وَهُمْ يُشيرونَ بِأيْديهِمْ إشاراتٍ غَيْرَ مَفْهومَةٍ ، فَصَعِدَ السِّنْدِبادُ وَالشَّيْخُ رَشْدانُ لِسَطْحِ السَّفينَةِ ، فَوَقَعَتْ عُيونُهُما عَلى أعْجَبِ مَشْهَدٍ يُمْكِنُ أنْ تَراهُ عَيْنُ إنْسانٍ .

كانَتِ السَّفينَةُ مُتَوَقِّفَةً مَكانَها ، وَقَدْ أحاطَ بِها الجَليدُ

مِنْ كُلِّ اتِّجاهٍ ، بَعْدَ أنْ تَجَمَّدَ النَّهْرُ واسْتَحالَ عُبورُهُ .

كانَ المَشْهَدُ عَجيبًا مُدْهِشًا ، وَأَغْرَبَ مِنَ الخَيالِ ، فَهَتَفَ السِّنْدِبادُ : « سُبْحانَ الله ! »

وَهَزَّ الشَّيْخُ رَشْدانُ رَأسَهُ قائِلاً : « كَما وَصَفَهُ أبي تَمامًا . »

وَسَأَلَ السِّنْدِبادُ رَفيقَهُ في دَهْشَةٍ : « لِماذا لَمْ يُهَشِّمْ جَليدُ النَّهْرِ سَفينَتَنا كَما كُنْتَ تَخْشى أنْ يَفْعَلَ بِنا البَحْرُ ، لَوْ تَجَمَّدَ حَوْلَنا ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « هَذا لأَنَّ ضَغْطَ مِياهِ البَحْرِ إذا تَحَوَّلَتْ إلى جَليدٍ ، يَكونُ أقْسى آلافَ المَرّاتِ مِنْ ضَغْطِ جَليدِ النَّهرِ . »

هَزَّ السِّنْدِبادُ رَأْسَهُ ، ثُمَّ تَساءَلَ وَهُوَ يَتَطَلَّعُ حَوْلَهُ : « وَما العَمَلُ الآنَ ؟ كَيْفَ سَنَجولُ في هَذِهِ الأَرْضِ ؟ »

أَجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « لَيْسَ أمامَنا سِوى اسْتِئْجارِ أَوْ شِراءِ زَحّافَةٍ بِكِلابِها ، وَقَبْلَ ذَلِكَ عَلَيْنا العُثورَ عَلى دَليلٍ

مِنْ أهالي تِلْكَ الأرْضِ لِيُرْشِدَنا إلى مَكانِ القُرْصانِ ، فَلا شَكَّ أنَّهُ شوهِدَ في هَذِهِ الأنْحاءِ ، بِسَبَبِ اخْتِلافِ لَوْنِهِ . »

سَأَلَ السِّنْدِبادُ : « أيْنَ سَنَعْثُرُ عَلى هَذا الدَّليلِ وَالزَّحّافَةِ وَكِلابِها ؟ »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدان : « لَسْتُ أدْري . وَلَكِنْ لَيْسَ أمامَنا مِنْ سَبيلٍ غَيْرُ البَحْثِ . »

قالَ السِّنْدِبادُ في تَوَتُّرٍ : « لَوْ أنَّنا غادَرْنا السَّفينَةَ ، لَتَجَمَّدْنا فَوْقَ الجَليدِ . »

أجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدانُ مُطَمْئِنا : « سَوْفَ نُضاعِفُ مِنْ مَلابِسِنا وَجُلودِ الخِرافِ ، وَسَنَصْنَعُ أَحْذِيَةً مِنْها أيْضًا ، وَلَنْ يُعيقَنا شَيْءٌ عَنْ مُهِمَّتِنا ، وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَيْنا مُغادَرَةُ سَفينَتِنا قَبْلَ أنْ يَقْسُوَ الجَليدُ حَوْلَ السَّفينَةِ ، وَيَصيرَ صالِحًا لِلسَّيْرِ فَوْقَهُ ، وَعَلَيَّ أيْضًا حَلْقَ لِحْيَتي ، وَإلا تَحَوَّلَ هَواءُ زَفيرِيَ السّاخِنُ ، إلى نُدَفٍ مِنَ الثَّلْجِ فَوْقَها ، بِسَبَبِ تَجَمُّدِهِ لَحْظَةَ خُروجِهِ مِنْ فَمي . »

تَأمَّلَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدان صامِتًا ، وَخِلالَ ساعاتِ النَّهارِ الَّتي لَمْ تُشْرِقْ فيها الشَّمْسُ غَيْرَ ساعَةٍ إلا قَليلاً ، تَمَكَّنَا مِنْ صُنْعِ المَلابِسِ وَالأحْذِيَةِ المَطْلوبَةِ ، وَبَقِيا فَوْقَ السَّفينَةِ ثَلاثَةَ أيّامٍ ، حَتّى اسْتَوْثَقا مِنْ تَصَلُّبِ الجَليدِ حَوْلَها ، فَحَلَقَ الشَّيْخُ رَشْدانُ لِحْيَتَهُ بالْموسى ، وَبَدا مَنْظَرُهُ مُخْتَلِفًا بَعْضَ الشَّيْءِ في عَيْني السِّنْدِبادِ .

وَتَسَلَّحَ السِّنْدِبادُ بِبَلْطَةٍ وَسِكّينٍ لِلشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَتَأهَّبا لِمُغادَرَةِ السَّفينَةِ . وَأَوْصى الشَّيْخُ رَشْدانُ بَحّارَتَهُ بِعَدَمِ مُغادَرَةِ السَّفينَةِ ، وَهَبَطَ فَوْقَ الجَليدِ بالْحِبالِ مَعَ السِّنْدِبادِ ، ثُمَّ سارا فَوْقَ الجَليدِ الزَّلِقِ النّاعِمِ .

وَاسْتَمَرَّ الاثْنانِ في سَيْرِهِما ساعاتٍ فَوْقَ الجَليدِ . وَصادَفا عَديدًا مِنَ الثَّعالِبِ والأَرانِبِ البَرِّيَّةِ ، ثُمَّ جَلَسا لِلرّاحَةِ وَتَناوَلا بَعْضَ الطَّعامِ الَّذي حَمَلاهُ مَعَهُما . وَبَعْدَها بَدَأَتِ الرِّياحُ تَشْتَدُّ وَتَصْفِرُ ، فَقالَ الشَّيْخُ رَشدانُ قَلِقًا : « يَبْدو أنَّ عاصِفَةً ثَلْجِيَّةً سَتَهُبُّ بَعْدَ قَليلٍ ، وَعَلَيْنا البَحْثَ عَنْ مَكانٍ نَلْتَجِئُ إلَيْهِ . »

وَعَبَرا صَفْحَةَ النَّهْرِ الْمُتَجَمِّدِ إلى الأرْضِ الجَليدِيَّةِ الَّتي انْتَشَرَتْ فيها التِّلالُ، باحِثَيْنِ عَنْ بَعْضِ الأشْجار أَوْ أحَدِ الكُهوفِ ، ولَكِنَّهُما تَوَقَّفا بَعْدَ قَليلٍ مَرْعوبَيْنِ ؛ فَأمامَهُما عَلى مَسافَةِ أمْتارٍ قَليلَةٍ ، شاهَدا دُبًّا مُتَوَحِّشًا ضَخْمًا قَدِ انْتَصَبَ فَوْقَ قَدَمَيْهِ الخَلْفِيَّتَيْنِ .



وَزَأَرَ الدُّبُّ في وَحْشِيَّةٍ ، ثُمَّ انْدَفَعَ نَحْوَهُما ، وَقَدْ أعْماهُ الجوعُ . وَصَرَخَ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « حاذِرْ ، يا سِنْدِبادُ . »

وَلَكِنَّ الدُّبَّ اتَّجَهَ إلى الشَّيْخِ لا السِّنْدِبادِ ، وَهَوى فَوْقَ صَدْرِهِ بِذِراعِهِ ، فَطَوَّحَ بالشَّيْخِ رَشْدانَ بَعيدًا غارقًا في دِمائِهِ . وَانْفَجَرَ غَضَبُ السِّنْدِبادِ ، فَانْدَفَعَ نَحْوَ الدُّبِّ ، قَبْلَ أنْ يَقومَ بِتَمْزيقِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَقَفَزَ فَوْقَ ظَهْرِهِ وَعاجَلَهُ بِضَرْبَةٍ مِنْ بَلْطَتِهِ في صَدْرِهِ فَأصابَتْ قَلْبَهُ، فَزَأَرَ الدُّبُّ في تَوَحُّشٍ وَسالَتْ دِماؤُهُ ، ثُمَّ تَجَمَّدَتْ ، وَلَكِنَّهُ عاجَلَ السِّنْدِبادَ بِضَرْبَةٍ قاسِيَةٍ أفْقَدَتْهُ وَعْيَهُ ، ثُمَّ تَرَنَّحَ الدُّبُّ وَسَقَطَ مَيِّتًا دونَ حَراكٍ .

الفَصْلُ السّادِسُ
عَجائِبُ أرْضِ الجَليدِ

لَمْ يَدْرِ السِّنْدِبادُ كَمْ مِنَ الوَقْتِ انْقَضى عِنْدَما فَتَحَ عَيْنَيْهِ ، فَطالَعَتْهُ غِشاوَةٌ لَمْ يُمَيِّزْ بِسَبَبِها الأشْياءَ حَوْلَهُ .

وَأَحَسَّ بِآلامٍ في كُلِّ جَسَدِهِ وَكَأنَّ جَبَلاً تَهاوى فَوْقَهُ . وَتَذَكَّرَ كُلَّ ما مَرَّ بِهِ وَصِراعَهُ مَعَ الدُّبِّ المُخيفِ . وَتَساءَلَ السِّنْدِبادُ إنْ كانَ لا يَزالُ حَيًّا ، أَمْ أَنَّهُ انْتَقَلَ إلى العالَمِ الآخَرِ ؟

وَتَذَكَّرَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ فَنَدَّتْ عَنْهُ آهَةُ أَلَمٍ ، وَجاهَدَ لِيَفْتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَتَنَبَّهَ إلى أَنَّهُ راقِدٌ في مَكانٍ غَريبٍ ، كانَ أشْبَهَ بِحُجْرَةٍ واسِعَةٍ غُطِّيَتْ جُدْرانُها بِجُلودٍ لِحَيَواناتٍ غَريبَةٍ ذاتِ فِراءٍ كَثيفٍ . وَقَدْ تَدَلَّتْ مِنَ الحَوائِطِ مَجْموعَةٌ مِنَ الحِرابِ وَفُكوكِ أسْنانٍ غَريبَةٍ

لِحَيوَاناتٍ يَجْهَلُها .

وَشاهَدَ في الرُّكْنِ إناءً مُفَلْطَحًا يَمْتَلِئُ بِزَيْتٍ غَريبٍ غُمِسَتْ فيهِ زُبالَةٌ مِنَ الطَّحالِبِ الجافَّةِ ، الَّتي اشْتَعَلَ طَرَفُها فَأَضاءَتِ المَكانَ بِقَبَسٍ مِنَ النّورِ . وَكانَ الفِراشُ الَّذي يَرْقُدُ عَلَيْهِ ناعِمًا لَيِّنًا ، وَلَكِنْ بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ أَحَسَّ السِّنْدِبادُ بِقَليلٍ مِنَ البَرْدِ فَانْكَمَشَ في رَقْدَتِهِ . وَتَنَبَّهَ إلى أَنَّهُ يَرْتَدي مَلابِسَ غَريبَةً : قَميصًا مِنْ فِراءٍ ثَقيلٍ ، وَغِطاءً لِلرَّأْسِ ، وَقُفّازًا مَصْنوعًا مِنْ فَرْوٍ عَجيبٍ ، وَسِرْوالاً مِنَ الفِراءِ أَيْضًا .

وَحاوَلَ السِّنْدِبادُ أَنْ يَنْهَضَ وَيُغادِرَ فِراشَهُ ، وَلَكِنَّ قُوَّتَهُ لَمْ تُطاوِعْهُ ، وَشَعَرَ بِإِعْياءٍ ، وَخُيِّلَ لَهُ أَنَّهُ يَسْمَعُ أَصْواتَ نُباحِ كِلابٍ بَعيدَةً . وَكانَ صَوْتُ النُّباحِ أَقْرَبَ إلى العُواءِ ، وَيَخْتَلِطُ بِزَمْجَرَةِ عاصِفَةٍ عاتِيَةٍ ، ثُمَّ أَحَسَّ السِّنْدِبادُ بِالنُّعاسِ يَغْزو جَفْنَيْهِ ، فاسْتَغْرَقَ في سُباتٍ عَميقٍ .

وَبَعْدَ وَقْتٍ تَناهَتْ إلى أُذُنَيْهِ أَصْواتٌ قَريبَةٌ ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ في بُطْءٍ فَطالَعَهُ وَجْهٌ غَريبٌ يُحَدِّقُ فيهِ عَلى مَسافَةٍ

قَريبَةٍ ؛ وَقَدِ ارْتَدى صاحِبُهُ غِطاءً لِلرَّأسِ غَريبَ الشَّكْلِ ، امْتَدَّ مِنْ رَأْسِهِ وَحَتّى كَتِفَيْهِ ، فَشَهِقَ السِّنْدِبادُ لِلْمُفاجَأَةِ ،



وَلَكِنَّ الرَّجُلَ الغَريبَ مَدَّ يَدَهُ يُرَبِّتُ فَوْقَ وَجْنَةِ السِّنْدِبادِ مُطَمْئِنًا ، وَالْتَقَطَ مِنْ مَكانٍ قَريبٍ قِدْرًا بِها حَساءٌ كانَ قَدْ وَضَعَهُ فَوْقَ بَعْضِ الحَطَبِ المُتَّقِدِ ، وَمَدَّهُ إلى السِّنْدِبادِ الَّذي الْتَقَطَهُ مِنْهُ ، وَشَرَعَ في احْتِسائِهِ بِرَغْمِ سُخونَتِهِ ، حَتّى أتى عَلَيْهِ . كانَ مَذاقُ الحَساءِ غَريبًا لَكِنَّهُ مَقْبولُ الطَّعْمِ ، وَفي نِهايَةِ القِدْرِ وَجَدَ سِنْدِبادُ بَعْضَ قِطَعِ اللَّحْمِ فَالْتَهَمَها في سُرورٍ ، ثُمَّ تَطَلَّعَ إلى مُضيفِهِ شاكِرًا .

وَأدْرَكَ السِّنْدِبادُ أنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ مِنْ سُكّانِ تِلْكَ الأَرْضِ المُتَجَمِّدَةِ ، وَأَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ إنْقاذِهِ بِطَريقَةٍ ما . وَاحْتارَ كَيْفَ يَسْأَلُهُ عَنْ مَصيرِ الشَّيْخِ رَشْدانَ وَهُوَ يَجْهَلُ لُغَتَهُ . وَفَجْأَةً قالَ الرَّجُلُ لَهُ في لُغَةٍ عَرَبِيَّةٍ صَحيحَةٍ ذاتِ لُكْنَةٍ غَريبَةٍ : « هَلْ تَشْعُرُ بِتَحَسُّنٍ ؟»

اِنْتَفَضَ السِّنْدِبادُ وَتَطَلَّعَ إلى الرَّجُلِ مَذْهولاً ، وَقالَ لَهُ : « إنَّكَ تَتَحَدَّثُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ الفُصْحى ، فَكَيْفَ تَعَلَّمْتَها ؟»

اِبْتَسَمَ الرَّجُلُ وَقالَ : « لِهَذا الأمْرِ حِكايَةٌ طَويلَةٌ لَيْسَ

هَذا وَقْتَها . وَلَعَلَّكَ قَلِقٌ عَلى صَديقِكَ الشَّيْخِ وَتَرْغَبُ في الاطْمِئْنانِ عَلَيْهِ ؟»

قالَ السِّنْدِبادُ بِلَهْفَةٍ : « أخْبَرْني ، ماذا جَرى لِلشَّيْخِ رَشْدان ؟»

أَجابَهُ الرَّجُلُ مُتَرَفِّقًا : « إنَّهُ يَرْقُدُ في مَنْزِلٍ صَغيرٍ مِنَ الثَّلْجِ ، صَنَعْتُهُ لَهُ خِصِّيصًا وَجَهَّزْتُهُ بِكُلِّ ما يَحْتاجُهُ ، وَقَدْ أَوْشَكَ عَلى التَّعافي ، وَلَكِنَّ إصابَتَهُ تَحْتاجُ لِبَعْضِ الوَقْتِ لِكَيْ تَلْتَئِمَ ؛ فَقَدْ أَصابَهُ الدُّبُّ بِجِراحٍ عَميقَةٍ في صَدْرِهِ ، وَلَوْلا الجَليدُ لَنَزَفَ حَتّى المَوْتِ ، وَلَكِنَّ البَرْدَ جَمَّدَ جِراحَهُ فَتَوَقَّفَتْ عَنِ النَّزيفِ .

وَصَمَتَ الرَّجُلُ لَحْظَةً ، ثُمَّ قالَ لِلسِّنْدِبادِ : « إنَّكَ بَطَلٌ ، أيُّها الفَتى ، فَقَدْ تَمَكَّنْتَ وَحْدَكَ مِنْ قَتْلِ أَضْخَمِ دُبٍّ شاهَدْتُهُ في حَياتي ، وَما كانَ في اسْتِطاعَةِ عَشَرَةِ أَشْخاصٍ أَنْ يُنازِلوهُ مُجْتَمِعينَ . »

قالَ السِّنْدِبادُ مُتَأَلِّمًا : « ما كانَتْ حَياتي تَهُمُّني ، ولَمْ

أُصارِعِ الدُّبَّ بِرَغْبَةٍ حارَّةٍ في النَّجاةِ وَالحَياةِ ؛ إلا لإنْقاذِ الشَّيْخِ رَشْدانَ، وَهُوَ مِنّي في مَنْزِلَةِ الأبِ والمُعَلِّمِ . »

« ما أكْرَمَ أخْلاقَكَ ، أيُّها الفَتى ، فَهِيَ مُتَوَهِّجَةٌ مُتَأَلِّقَةٌ مِثْلُ شَجاعَتِكَ !»

« وَلَكِنْ أَخْبِرْني كَيْفَ عَثَرْتَ عَلَيْنا وَأنْقَذْتَ حَياتَنا ؟»

« لَمْ يَكُنْ لي في ذَلِكَ فَضْلٌ كَبيرٌ ، بَلْ كانَ الفَضْلُ لِكِلابي مِنْ فَصيلَةِ الهسْكي ، وَهِيَ الكِلاب الَّتي نَسْتَعْمِلُها في جَرِّ الزَّحّافاتِ ، وَقَدْ فاجَأَتْني العاصِفَةُ أَنَا وَكِلابي قَبْلَ يَوْمَيْنِ ، وَأَوْشَكَتْ أَنْ تَدْفِنَنا تَحْتَها . وَكانَتِ الكِلابُ توشِكُ عَلى المَوْتِ جوعًا ، وَلَكِنَّها شَمَّتْ رائِحَةَ الدُّبِّ القَتيلِ مِنْ مَسافَةٍ بَعيدَةٍ ؛ فَحادَتْ عَنْ طَريقِها وَجَرَّتِ الزَّحّافَةَ رَغْمًا عَنّي إلى مَكانِ الدُّبِّ ، الَّذي أَوْشَكَتِ الثُّلوجُ عَلى دَفْنِهِ تَحْتَها ، فَانْقَضَّتْ عَلَيْهِ الكِلابُ تَنْهَشُهُ وَتُمَزِّقُ لَحْمَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَكَ أَوْ لِلشَّيْخِ مِنْ أَثَرٍ ، وَلَكِنّي أَدْرَكْتُ أَنَّ هُناكَ شَخْصًا أَوْ أَشْخاصًا قَريبينَ ، كانَ مَصْرَعُ الدُّبِّ عَلى أَيْديهِمْ ، فَشَرَعْتُ أَنْبُشُ

فِي الثَّلْجِ بِرَغْمِ العاصِفَةِ ، فَعَثَرْتُ عَلَيْكُما وَقَدْ أَوْشَكْتُما عَلى التَّجَمُّدِ وَالْمَوْتِ ، فَقُمْتُ بِتَمْديدِكُما فَوْقَ الزَّحّافَةِ ، وَسَلَخْتُ جِلْدَ الدُّبِّ وَغَطَّيْتُكُما بِهِ ، وَأَسْرَعْتُ عائِدًا بِكُما إِلى مَنْزِلي هَذا . وَما كانَ الْمَنْزِلُ الصَّغيرُ لِيَتَّسِعَ لأَكْثَرَ مِنْ واحِدٍ مِنْكُما ؛ فَشَرَعْتُ في تَشْييدِ مَنْزِلٍ آخَرَ مِنَ الثَّلْجِ لِرَفيقِكَ الشَّيْخِ . »

ارْتَجَفَ السِّنْدِبادُ وَهُوَ يَقولُ : « مَنْزِلٌ مِنَ الثَّلْجِ ؟ ما أَشَدَّ بُرودَتَهُ !»

أَجابَهُ رَجُلُ الإِسْكيمو مُبْتَسِمًا : « بَلْ ما أَدْفَأَهُ . فَإِنَّهُ يَعْمَلُ كَعازِلٍ وَيَصُدُّ البُرودَةَ الَّتي لا يُمْكِنُها أَنْ تَتَسَلَّلَ داخِلَهُ ، وَبَعْدَ تَغْطِيَةِ جُدْرانِهِ بِجُلودِ حَيَوانِ الكاريبو ، فَإِنَّهُ يُصْبِحُ دافِئًا وَمُناسِبًا تَمامًا لِلْحَياةِ بِداخِلِهِ . وَلَعَلَّكَ تَشْعُرُ بِالدِّفْءِ في هَذا الْمَنْزِلِ ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ مُشَيَّدٌ مِنَ أَنَّهُ مُشَيَّدٌ مِنَ الثَّلْجِ أَيْضًا !»

تَطَلَّعَ السِّنْدِبادُ حَوْلَهُ وَتَساءَلَ في دَهْشَةٍ : « هَلْ هَذا المَكانُ الَّذي أَرْقُدُ فيهِ ، مَصْنوعٌ مِنَ الثَّلْجِ أَيْضًا ؟»

أوْمأ الرَّجُلُ برأسِهِ مُجيبًا بنَعَم وَقالَ : « إنَّ هَذِهِ المَساكِنَ الثَّلْجيَّةَ يَبْنيها سُكّانُ هَذِهِ البِلادِ عادَةً عِنْدَ خُروجِهِمْ لِلصَّيْدِ وَابْتِعادِهِمْ عَنْ بُيوتِهِمُ الأصْلِيَّةِ ، فَقَدْ يُضْطَرُّ أحَدُنا لِلْبَقاءِ فيها شُهورَ الشِّتاءِ كامِلَةً مَعَ كِلابِهِ قَبْلَ أنْ يَعودَ لأَهْلِهِ بِما صادَهُ . »

« ما أَغْرَبَ هَذِهِ الأرْضَ وَالحَياةَ فَوْقَها ! »

« أنْتَ لَمْ تَرَ شَيْئًا بَعْدُ مِنْ عَجائِبِها وَطَرائِفِها . »

« هَلْ يُمْكِنُني الاطْمِئْنانُ عَلى الشَّيْخِ رَشْدانَ وَرُؤْيَتُهُ ؟ »

قالَ رَجُلُ الإسْكيمو الَّذي عَلِمَ السِّنْدِبادُ أنَّ اسْمَهُ « ليمو » : « هَيّا بِنا . وَلَكِنْ عَلَيْكَ أنْ تَرْتَدِيَ هَذا الحِذاءَ أَوَّلاً . »

وقَدَّمَ إلى السِّنْدِبادِ حِذاءً مَصْنوعًا مِنْ جِلْدٍ غَريبِ الشَّكْلِ ، فَتَأَمَّلَهُ السِّنْدِبادُ حائِرًا ، فَقالَ لَهُ ليمو : « لَقَدْ صَنَعْتُهُ عَلى مَقاسِكَ مِنْ جِلْدِ عِجْلِ البَحْرِ . »

اِرْتَدى السِّنْدِبادُ الحِذاءَ صامِتًا . وَلَشَدَّ ما كانَتْ دَهْشَتُهُ

عِنْدَما شاهَدَ رَجُلَ الإسْكيمو يُغادِرُ المَنْزِلَ الثَّلْجِيَّ مِنْ خِلالِ فُتْحَةٍ صَغيرَةٍ أسْفَلَ رُكْنِ المَنْزِلَ ، مَرَّ مِنْ خِلالِها زاحِفًا فَتَبِعَهُ السِّنْدِبادُ وَقَدْ أدْرَكَ أنَّ تِلْكَ المَنازِلَ لا تُقامُ فيها نَوافِذُ أوْ أَبْوابٌ . وَفي الخارِجِ كانَتِ السَّماءُ مُظْلِمَةً إلا مِنْ ضَوْءٍ بَعيدٍ غَريبٍ ، أشْبَهَ بِحُزَمٍ مِنَ الضَّوْءِ الخافِتِ المَشوبِ بِصُفْرَةٍ وَحُمْرَةٍ خَفيفَةٍ عَجيبَةٍ ، أَتاحَتْ لَهُ تَأمُّلَ تَفاصيلِ المَكانِ . وَشاهَدَ السِّنْدِبادُ مَنْزِلاً اخَرَ صَغيرًا عَلى مَسافَةٍ قَريبَةٍ ، وَعَدَدًا كَبيرًا مِنَ الكِلابِ المَرْبوطَةِ في زَحّافَةٍ كَبيرَةٍ، وَقَدْ رَقَدَتْ في الثَّلْجِ مُتَجاوِرَةً لِتُدْفِئَ بَعْضُها بَعْضًا. وَلَمْ يَكُنْ مِنْ شَكٍّ أَنَّ الكِلابَ وَالزَّحّافَةَ تَخُصُّ ليمو .

وَدَخَلَ الاثْنانِ المَسْكَنَ الثَّلْجِيَّ الآخَرَ زاحِفَيْنِ ، وَشاهَدَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ راقِدًا فَوْقَ فِراءٍ ثَقيلٍ ، وَقَدْ أَشْعَلَ ليمو بَعْضَ النّارِ داخِلَ المَسْكَنِ لِتَدْفِئَتِهِ ، فاحْتَضَنَ السِّنْدِبادُ الشَّيْخَ رَشْدانَ ، الَّذي فَتَحَ عَيْنَيْهِ ، وَظَهَرَتْ عَلى وَجْهِهِ عَلاماتُ الألَمِ ، وَغَمْغَمَ بَيْنَ اليَقَظَةِ وَالنَّوْمِ

هاتِفًا باسْمِ سِنْدِبادَ ، ثُمَّ عادَ إلى سُباتِهِ العَميقِ ؛ فَامْتَلأتْ عَيْنا السِّنْدِبادِ بالدُّموعِ وَلَكِنَّ ليمو رَبَّتَ فَوْقَ كَتِفِهِ قائِلاً : « سَوْفَ يُشْفى وَيَسْتَعيدُ قُواهُ خِلالَ أيّامٍ ، فَاطْمَئِنَّ . »

وَلَمْ يَسْتَطِعِ السِّنْدِبادُ كَتْمَ فُضولِهِ أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَسَأَلَ ليمو عَنْ سِرِّ تَعَلُّمِهِ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ ؛ فَأَجابَهُ : « لَقَدْ عَلَّمَني إيّاها رَجُلٌ أَتى يَوْمًا أرْضَنا ، وَعاشَ هَذا الرَّجُلُ بَيْنَ قَوْمِنا زَمَنًا ، وَأَخْبَرَني أنَّهُ أتى مِنْ بِلادٍ بَعيدَةٍ تُدْعى بَغْدادَ . »

هَتَفَ السِّنْدِبادُ : « لا بُدَّ أنَّ هَذا الرَّجُلَ هُوَ والِدُ الشَّيْخِ رَشْدانَ . »

قالَ ليمو : « هَذا هُوَ ما خَمَّنْتُهُ ، فَلِهَذا الرَّجُلِ شَبَهٌ قَوِيٌّ مَعَ رَفيقِكَ . وَلَكِنْ أخْبِرْني ، أيُّها الفَتى ، أيُّ سَبَبٍ أَتى بِكُما إلى أرْضِنا الوَعْرَةِ وَجَليدِها الدّائِمِ ؟»

فَقَصَّ السِّنْدِبادُ عَلى ليمو سِرَّ مَجيئِهِ هُوَ وَالشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَبَحْثِهِما عَنِ القُرْصانِ الأسْوَدِ الَّذي اخْتَطَفَ

ابْنَةَ الشَّيْخِ الوَحيدةَ ، فَضاقَتْ عَينا ليمو وَقالَ : « هَلْ جِئْتُما في طَلَبِ القُرْصانِ الأسْودِ ؟»

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ مُتَلَهِّفًا : « وَهَلْ تَعْرِفُ مَكانَهُ في هَذِهِ الأَرْضِ ؟»

أَجابَهُ رَجُلُ الإسْكيمو : « نَعَمْ ، فَإِنَّ سَوادَ بَشَرَتِهِ وَكَأَنَّها اللَّيْلُ جَعَلَتْهُ شَهيرًا في أرْضِنا ، فَقَدْ جاءَ إلَيْها قَبْلَ عامٍ وَنِصْفٍ دونَ أنْ يُفْصِحَ عَنْ سَبَبِ مَجيئِهِ إلى أَرْضِنا البارِدَةِ ، وَقَدْ حَمَلَ مَعَهُ صَناديقَ لا حَصْرَ لَها مَليئَةً بالذَّهَبِ وَالجَواهِرِ وَالنَّفائِسِ ، وَحاوَلَ أنْ يَعيشَ بَيْنَ قَوْمِنا ، وَأنْ يَمْنَحَهُمْ مِنْ ذَهَبِهِ وَثَرْوَتِهِ ما يَشاءونَ ، وَلَكِنَّهُمْ رَفَضوهُ بِسَبَبِ غَرابَةِ لَوْنِهِ الَّذي لَمْ يَعْتادوا عَلَيْهِ ، كَما أَنَّ حُكَماءَ أرْضِنا قالوا إنَّ الشَّرَّ يَنْبَعِثُ مِنْ عَيْنَيْ ذَلِكَ الغَريبِ الأَسْودِ ، وَإنَّ رُوحَهُ يَسودُها الظَّلامُ ، وَإنَّ اللَّعْنَةَ تَحُلُّ عَلى أيِّ مَكانٍ تَطَؤُهُ قَدَماهُ ، لِذَلِكَ رَفَضَهُ أَهْلُنا فَاضْطُرَّ لِلإقامَةِ وَحيدًا مَنْبوذًا عَلى أطْرافِ أرْضِنا ، لا يَزورُ أوْ يُزارُ . وَالآنَ أُدْرِكُ أَنَّ كُلَّ ما قالَهُ حُكَماؤنا

وَعَلِموهُ بِبَصيرَتِهِمْ ، هُوَ حَقيقَةٌ ، وَأَنَّ هَذا الرَّجُلَ أَشَرُّ مِمّا قَدَّرْنا . »

سَأَلَهُ السِّنْدِبادُ : « هَلْ كانَ يَصْحَبُ ذَلِكَ القُرْصانَ صَبِيَّةٌ جَميلَةٌ في نَفْسِ عُمْري ؟»

أَجابَهُ رَجُلُ الإسْكيمو : « لَسْتُ أَدْري ، فَقَدْ كانَ يَصْحَبُ ذَلِكَ الشِّرّيرَ الكَثيرُ مِنَ الأَتْباعِ ، مُخْتَلِفي الأَعْمارِ وَالوُجوهِ وَالأَلْوانِ . »

هَبَّ السِّنْدِبادُ واقِفًا في حَماسٍ ، وَهُوَ يَقولُ : « إِذَنْ خُذْني إلى هَذا القُرْصانِ الشِّرّيرِ في الحالِ . »

أَجابَهُ ليمو : « أَ لَيْسَ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَنْتَظِرَ اسْتِعادَةَ رَفيقِكَ الشَّيْخِ لِقُواهُ ، فَنَصْحَبَهُ مَعَنا ؟ فَإِنَّ الأَمْرَ يَخُصُّهُ قَبْلَنا ، كَما أَنَّ الوُصولَ إلى مَكانِ القُرْصانِ الأَسْوَدِ لَنْ يَسْتَغْرِقَ أَقَلَّ مِنْ شَهْرٍ ، وَلَنْ نَسْتَطيعَ خِلالَ هَذِهِ المُدَّةِ تَرْكَ رَفيقِكَ الشَّيْخِ وَحْدَهُ ، وَإِلا هَلَكَ ، لأَنَّهُ في حاجَةٍ لِمَنْ يَعْتَني بِهِ حَتّى يَسْتَرِدَّ قُوَّتَهُ . »

أَطْرَقَ السِّنْدِبادُ بِرَأسِهِ ، وَقالَ : « صَدَقْتَ ، أيُّها الرَّجُلُ . »

وَمَرَّ أَكْثَرُ مِنْ شَهْرٍ قَبْلَ أنْ يَسْتَعيدَ الشَّيْخُ رَشْدانُ عافِيَتَهُ وَيَتَمَكَّنَ مِنْ مُغادَرَةِ فِراشِهِ وَتَلْتَئِمَ جِراحُهُ . وَخِلالَ ذَلِكَ الوَقْتِ اخْتَفَتِ الشَّمْسُ عَنْ قَلْبِ السَّماءِ تَمامًا ، وَسادَ الظَّلامُ لَيْلَ نَهارَ لا يَقْطَعُهُ بَصيصُ ضَوْءٍ ، غَيْرَ أَنْوارِ الشَّفَقِ الغامِضَةِ الخافِتَةِ . وَغَمْغَمَ الشَّيْخُ رَشْدانُ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ السَّماءَ بَعْدَ تَمامِ شِفائِهِ : « لا أُصَدِّقُ أَنَّني قَدْ سَأَبْلُغُ مَكانَ هَذا القُرْصانِ الأَسْوَدِ أَخيرًا ، وَأَهْتَدي إلى مَكانِ ابْنَتي الغالِيَةِ . »

وَمَسَحَ دَمْعَةً تَجَمَّدَتْ فَوْقَ وَجْنَتَيْهِ ، وَهُوَ يَقولُ : « أَرْجو أَنْ أَجِدَها حَيَّةً تُرْزَقُ ، وَألا يَكونَ قَدْ نالَها سوءٌ عَلى يَدَيْ هَذا الوَغْدِ الشِّرّيرِ . »

أجابَهُ السِّنْدِبادُ مُتَرَفِّقًا : « فَلْتَدْعُ اللهَ إلى ذَلِكَ ، فَهُوَ سَميعٌ مُجيبٌ . »

فَاحْتَضَنَ الشَّيْخُ رَشْدانُ السِّنْدِبادَ ، وَقالَ لَهُ : « لا أدْري كَيْفَ أُكافِئُكَ عَلى جَميلِكَ ، أيُّها الفَتى ، فَلَوْلاكَ لَما أَمْكَنَني المُخاطَرَةُ بِهَذِهِ الرِّحْلَةِ ، وَلأهْلَكَتْني المَصاعِبُ وَالوُحوشُ الَّتي صادَفَتْنا . »

أَجابَهُ السِّنْدِبادُ : « لَوْ أنَّ الزَّمَنَ قَدْ عادَ بنا وَسَأَلْتَني أنْ أُرافِقَكَ هَذِهِ الرِّحْلَةَ مَرَّةً أخْرى- لَما تَرَدَّدْتُ بِرَغْمِ ما واجَهْتُهُ مِنْ مَخاطِرَ ، فَما أَسْوَأَ حَياتي الَّتي أَمْضَيْتُها مُتَبَطِّلاً كَسولاً في بَغْدادَ، وَما أَغْرَبَ ما شَهِدْتُ مِنْ عَجائِبَ في كُلِّ مَكانٍ زُرْناهُ . »

وَأَخيراً حانَ مَوْعِدُ الرَّحيل إلى مَكانِ القُرْصانِ الأَسْوَدِ ، فَتَأَهَّبَ ليمو لِذَلِكَ ، وَحَمَلَ مَتاعَهُ وَأَشْياءَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ الثَّلْجِيِّ إلى زَحّافَتِهِ ، وَأَجْلَسَ الشَّيْخَ رَشْدانَ في زَحّافَتِهِ ، وَاسْتَعَدَّ لِيَقْطَعَ المَسافَةَ الكَبيرَةَ مَعَ السِّنْدِبادِ ، سَيْراً فَوْقَ الأَقْدام .

وَبَدَأَتِ الرِّحْلَةُ في لَيْلٍ لا يَنْتَهي بَعْدَ أنْ غابَتِ الشَّمْسُ وَراءَ الأُفُقِ ، وَلَمْ تَطْلُعْ مَرَّةً أُخْرى .

الفَصْلُ السّابِعُ

نِهايَةُ القُرْصانِ الأسْوَدِ

اِسْتَمَرَّتِ الرِّحْلَةُ شَهْرًا بِأكْمَلِهِ ، كانَتِ الكِلابُ خِلالَها تَجُرُّ الزَّحّافَةَ نِصْفَ اليَوْمِ وتَرْتاحُ نِصْفَهُ الآخَرَ ، فَيَقومُ السِّنْدِبادُ وَرَجُلُ الإسْكيمو ليمو بِصَيْدِ عُجولِ البَحْرِ .

وَذاتَ يَوْمٍ لاحَ مِنْ بَعيدٍ هَيْكَلٌ ضَخْمٌ دُفِنَ في الجَليدِ ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ غَيْرُ نابَيْ فيلٍ كَبيرَيْنِ ، فَتَوَقَّفَ السِّنْدِبادُ أمامَهُ مَدْهوشًا ، وَقالَ ليمو في سُرورٍ : « هَذا الشَّيْءُ هُوَ نابا فيلِ الماموث. إنَّ أنْيابَ هَذِهِ الفِيَلَةِ تُساوي ثَرْوَةً ، وَالتِّجارَةُ فيها عِنْدنا تُحَقِّقُ أَرْباحًا طائِلَةً. لَقَدْ أَسْعَدَني الْحَظُّ بِرُفْقَتِكُما ؛ فَقَدْ عَثَرَ أبي أيْضًا عَلى نابَيْ فيلٍ ، وَهُوَ يُقَدِّمُ خِدْماتِهِ لأبيكَ الرّاحِلِ أيُّها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ . »

قالَ الشَّيْخُ رَشْدانُ : « الحَمْدُ لله ، إِنَها بادِرَةُ خَيْرٍ . »

وَتعاوَنَ الثَّلاثَةُ عَلى استِخْراجِ نابَي الفيلِ وَحَمَلاهُ إلى الزَّحّافَةِ ، وَ واصَلوا رِحْلَتَهُمْ ، إلى أنْ لاحَ مَسْكَنٌ صَغيرٌ مُشَيَّدٌ مِنَ الخَشَبِ وَالطِّينِ تُحيطُ بِهِ الثُّلوجُ ، وَأَوْشَكَتْ أنْ تَدْفِنَهُ تَحْتَها ، فَتَوَقَّفَ الرَّكْبُ ، وَأشارَ ليمو إلى المَنْزِلِ قائِلاً : « هُنا يَسْكُنُ القُرْصانُ الأَسْوَدُ . »

فَقالَ السِّنْدِبادُ مُتَعَجِّبًا : « إنَّ المَكانَ يَبْدو مَهْجورًا ، وَأَخْشى أنْ يَكونَ القُرْصانُ الأَسْوَدُ قَدْ غادَرَهُ . »

اِحْمَرَّ وَجْهُ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَقالَ : « إنَّ قَلْبي يُحَدِّثُني بِأنَّني سَأَجِدُ بُغْيَتي في الدّاخِلِ ، وَأَكادُ أَسْمَعُ أَنْفاسَ هَذا القُرْصانِ ، الَّذي يُلَوِّثُ الجَوَّ بِالْهَواءِ الَّذي يَتَنَفَّسُهُ . »

وَانْدَفَعَ نَحْوَ المَسْكَنِ ، وَأَزاحَ الثَّلْجَ المُتَراكِمَ فَوْقَ بابِهِ ، فَتَكَشَّفَتْ لَهُ رَدْهَةٌ غارِقَةٌ في الظَّلام وَحُجُراتٌ يَشْمَلُها صَمْتٌ مُطْبِقٌ ؛ فَصاحَ بِقُوَّةٍ : « أَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ هُنا ؟ »

وَخُيِّلَ لَهُ أَنَّهُ سَمِعَ آهَةً واهِنَةً تَأْتيهِ مِنْ إحْدى الحُجُراتِ ، فَانْدَفَعَ إلَيْها وَرَفَعَ بابَها ، فَتَحَطَّمَ وَتَهاوى . وَ وَقَفَ

الشَّيْخُ رَشْدانُ مَكانَهُ يُحَدِّقُ في الحُجْرَةِ المُظْلِمَةِ البارِدَةِ ، وَبَعْدَ لَحَظاتٍ بَدَأَتْ عَيْناهُ تَعْتادانِ الظَّلامَ ، فَشاهَدَ شَخْصًا مُمَدَّدًا فَوْقَ الأرْضِ الخَشَبِيَّةِ ، وَهُوَ يَئِنُّ وَيَتَوَجَّعُ ، وَقَدْ نَحَلَ جَسَدُهُ فَصارَ كَأَنَّهُ هَيْكَلٌ عَظْمِيٌّ . وَحَدَّقَ الشَّيْخُ رَشْدانُ فيهِ، وَتَفَرَّسَ في لَوْنِ بَشَرَتِهِ الأَسْوَدِ ، وَتَساءَلَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « القُرْصانُ الأَسْوَدُ ؟»

فَنَدَّتْ عَنِ القُرْصانِ آهَةُ أَلَمٍ أَحْرَقَتْ صَدْرَهُ ، وَأَقْبَلَ السِّنْدِبادُ وَليمو ، وَحَدَّقا في المَشْهَدِ أمامَهُما ذاهِلَيْنِ ، وَانْحَنى الشَّيْخُ رَشْدانُ عَلى القُرْصانِ المُحْتَضَرِ وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « إِنَّني لا أُصَدِّقُ ما أَراهُ أمامي . أَ أَنْتَ القُرْصانُ الأَسْوَدُ حَقًّا ، الَّذي كانَ اسْمُهُ يُثيرُ الرِّجْفَةَ في القُلوبِ وَالرِّعْدَةَ في الأَبْدانِ ؟ أَيَّةُ كارِثَةٍ أَصابَتْكَ ؟»

جاهَدَ القُرْصانُ لِلْكَلامِ ، وَقالَ بِمَشَقَّةٍ وَبِصَوْتٍ كَأَنَّهُ خارِجٌ مِنْ بِئْرٍ : « لَقَدْ هَجَرَني أَتْباعي ، وَنَهَبوا كُلَّ كُنوزي الَّتي جَلَبْتُها إِلى هَذِهِ الأَرْضِ ، وَحَتّى الحَشِيَّةُ الَّتي كُنْتُ أَنامُ عَلَيْها ضَنّوا عَلَيَّ بِها ، وَتَرَكوني وَحيدًا

أُعاني سكرات المَوْتِ في تِلْكَ الأَرْضِ ، بَلْ إِنَّني لَمْ أَتناوَلْ طَعامًا مُنْذُ أَيّامٍ ، وَلَمْ يَدْخُلْ جَوْفي سِوى الثَّلْجِ . »

فَارْبَدَّ وَجْهُ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَصَرَخَ في القُرْصانِ : «وَهَلْ تَسْتَحِقُّ غَيْرَ هَذا المَصيرِ ، أَيُّها المُجْرِمُ ؟»

وَأَطْبَقَ بِأَصابِعِهِ حَوْلَ عُنُقِهِ صارِخًا : « وَلَسَوْفَ تَكونُ نِهايَتُكَ عَلى يَدَيَّ ، أَيُّها الحَقيرُ . »

وَلَكِنَّ السِّنْدِبادَ انْدَفَعَ وَراءَ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَخَلَّصَ عُنُقَ القُرْصانِ مِنْ يَدِهِ ، وَهُوَ يَقولُ لَهُ : « لا يَليقُ بِكَ ، أَيُّها الشَّيْخُ أَنْ تَقْتُلَ رَجُلاً يوشِكُ عَلى الهَلاكِ وَلا يَقْدِرُ عَلى الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَوْ كانَ مِنْ عُتاةِ المُجْرِمينَ . »

عَضَّ الشَّيْخُ رَشْدانُ عَلى شَفَتَيْهِ ، وَغَمْغَمَ قائِلاً في نَدَم : « صَدَقْتَ ، أَيُّها السِّنْدِبادُ . »

فَأَغْمَضَ القُرْصانُ عَيْنَيْهِ وَسَكَنَتْ حَرَكَتُهُ ، وَبَدا كَأَنَّهُ في النَّزْعِ الأَخيرِ .

فَسَأَلَهُ السِّنْدِبادُ مُتَلَهِّفًا : « أَخْبِرْنا ، أَيُّها القُرْصانُ ،

مَاذا فَعَلْتَ بِابْنَةِ الشَّيْخِ رَشْدانَ ، وَأيْنَ هِيَ ؟»

فَتَحَ القُرْصانُ عَيْنَيْهِ ، وَبَدا كَأَنَّهُ يُجاهِدُ لِيَتَشَبَّثَ بِالحَياةِ وَقالَ في صَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ : « إنَّها الوَحيدَةُ الَّتي رَفَضَتْ أنْ تَتْرُكَني ، بِرَغْمِ ما سَبَّبْتُهُ لَها مِنْ أذًى ؛ فَظَلَّتْ إلى جِواري تُحاوِلُ تَطْبيبي وَمُداواتي دونَ فائِدَةٍ . وَهِيَ الآنَ . . . »

وَلَمْ يُتِمَّ القُرْصانُ عِبارَتَهُ ، وَجَحَظَتْ عَيْناهُ ، ثُمَّ مالَتْ رَأْسُهُ وَتَوَقَّفَ تَنَفُّسُهُ . وَصَرَخَ الشَّيْخُ رَشْدانُ في جُنونٍ : « لا تَمُتْ ، أَيُّها الشَّيْطانُ قَبْلَ أَنْ تُخْبِرَنا بِمَكانِ ابْنَتي . »



وَأَمْسَكَ بِبَدَنِ القُرْصانِ المَيِّتِ ، وَأَخَذَ يَهُزُّهُ في عُنْفٍ ، فَاحْتَضَنَهُ السِّنْدِبادُ قائِلاً : « اِطْمَئِنَّ ، أيُّها الشَّيْخُ ، فَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ أنَّ ابْنَتَكَ قَريبَةٌ مِنْ هُنا ؛ فَقَدْ أخْبَرَنا هَذا الرَّجُلُ قَبْلَ مَوْتِهِ أنَّها رَفَضَتْ تَرْكَهُ وَحيدًا ، وَلا شَكَّ أنَّها غادَرَتْ مَنْزِلَهُ لِلْبَحْثِ عَنْ طَعامٍ ، وَهِيَ لَنْ تَذْهَبَ بَعيدًا . »

وَقَفَزَ الشَّيْخُ رَشْدانُ نَحْوَ البابِ صارِخًا : « سَوْفَ أَبْحَثُ عَنْها . »

وَلَكِنَّ السِّنْدِبادَ تَشَبَّثَ بِذِراعِهِ قائِلاً : « اِنْتَظِرْ وَسَنَخْرُجُ مَعَكَ ، أيُّها الشَّيْخُ لِلْبَحْثِ عَنِ ابْنَتِكَ . وَلَكِنْ عَلَيْنا دَفْنَ القُرْصانِ أوَّلاً . »

فَصَمَتَ الشَّيْخُ رَشْدانُ وَلَمْ يَرُدَّ ، وَظَلَّتِ الدُّموعُ تَسُحُّ مِنْ عَيْنَيْهِ مِدْرارًا . وَنَهَضَ السِّنْدِبادُ فَجَهَّزَ حُفْرَةً خارِجَ المَنْزِلِ وَسَطَ الجَليدِ ، وَقامَ بِدَفْنِ القُرْصانِ فيها وَالصَّلاةِ عَلَيْهِ .

وَأَشارَ ليمو إلى آثارِ أقْدامٍ عَلى الأرْضِ ، وَقالَ :

« هَذِهِ آثارُ قَدَمَيْ فَتاةٍ صَغيرةٍ ، وَهِيَ آثارُ قَدَمَيْ عَنْبَر دونَ شَكٍّ ، فَهِيَ صَغيرَةٌ مُتَعَثِّرَةٌ ، وَقَدِ انْطَبَعَتْ فَوْقَ الثَّلْجِ الهَشِّ الَّذي تَساقَطَ لَيْلَةَ أمْسِ ، وَلَعلَّنا نَكونُ حَسَني الحَظِّ لَوْ عَثَرْنا عَلَيْها سَريعًا ، فَهِيَ لَنْ تَصْمُدَ في ذَلِكَ الطَّقْسِ القارِسِ البُرودَةِ . »

وَأَسْرَعوا ثَلاثَتُهُمْ وَراءَ أَثَرِ الأَقْدامِ الَّتي انْتَهَتْ فَجْأَةً إلى جِوارِ أَحَدِ الكُثْبانِ .

وَما كادَ الشَّيْخُ رَشْدانُ يُطِلُّ وَراءَها حَتّى اتَّسَعَتْ عَيْناهُ ، وَصَرَخَ غَيْرَ مُصَدِّقٍ : « عَنْبر . . ابْنَتي ؟! »

وَكانَتْ عَنْبَر مُلْقاةً عَلى الأَرْضِ فاقِدَةً الوَعْيَ وَقَدْ تَجَمَّدَتْ أَطْرافُها، وَأَوْشَكَ تَنَفُّسُها أَنْ يَتَوَقَّفَ ، فاحْتَضَنَها الشَّيْخُ رَشْدانُ وَهُوَ يَبْكي كَطِفْلٍ صَغيرٍ ، وَهُوَ يَخْشى فَقْدَ ابْنَتِهِ ، بَعْدَ أَنْ عَثَرَ عَلَيْها أَخيرًا .

الفَصْلُ الثّامِنُ
العَوْدَةُ إلى بَغْدادَ

كادَتْ عَنْبَر تَلْقى مَصْرَعَها ؛ وَلَكِنَّ مَهارَةَ ليمو أنْقَذَتْها . وَعِنْدَما أَفاقَتْ ، احْتَضَنَها والِدُها وَمَسَحَ دُموعَها قائِلاً : « لَقَدِ الْتَأَمَ شَمْلُنا ، يا ابْنَتي ، وَلَنْ يَكونَ ثَمَّةَ سَبَبٌ لِلْبُكاءِ بَعْدَ الآن . »

وَقالَ ليمو : « سَوْفَ أصْطَحِبُكُمْ إلى سَفينَتِكُمْ . »

و تَأَهَّبَ الشَّيْخُ رَشْدانُ وَبَحّارَتُهُ لِلرَّحيلِ ، وَعانَقَ الشَّيْخُ وَالسِّنْدِبادُ ليمو ، الَّذي امْتَلأَتْ عَيْناهُ بِالدُّموعِ ، وَدَعاهُ الشَّيْخُ وَالسِّنْدِبادُ لِزِيارَتِهِما في بَلَدَيْهِما .

وَأَخيرًا أَقْلَعَتِ السَّفينَةُ عائِدَةً مِنْ حَيْثُ أَتَتْ . وَعَرَضَ الشَّيْخُ رَشْدانُ أَنْ يُكافِئَ السِّنْدِبادَ ، فَقالَ لَهُ السِّنْدِبادُ في

تَأثُّرٍ : « إنَّني مَدينٌ لكَ ، أيُّها الشَّيْخُ الطَّيِّبُ بِأكْثَرَ مِمّا أنتَ مَدينٌ لي ؛ فَقَدْ عَلَّمْتَني مِنَ الفُنونِ وَالخِبْراتِ وَالعُلومِ ، ما كُنْتُ لا أعْلَمُهُ وَحْدي ، وَلَكِنَّ ما يَشْغَلُني الآنَ هُوَ خَشْيَتي مِنَ العَوْدَةِ إلى دِياري في بَغْداد مَرَّةً أخْرى . »

أجابَهُ الشَّيْخُ رَشْدان : « إنَّ قَلْبي يُحَدِّثُني خَيْرًا ، وَأدْعو الله أنْ يُفَرِّجَ كَرْبَكَ . »

وَأخيرًا لاحَتْ شَواطِئُ البَصْرَةِ ، وَرَسَتِ السَّفينَةُ في الميناءِ ، وهُناكَ عَلِمَ السِّنْدِبادُ أَنَّ الخَليفَةَ عَزَلَ الوَزيرَ الظّالِمَ . وكادَ السِّنْدِبادُ يَطيرُ فَرَحًا ، واطْمَأنَّ قَلْبُ الشَّيْخِ رَشْدانَ .

وَتَعانَقَ الاثْنانِ بِقُوَّةٍ ، وَ عَرَضَ السِّنْدِبادُ على الشَّيْخِ أنْ يَسْتَضيفَهُ هُوَ وابْنَتَهُ ، فَوَعدهُ بِزِيارَةٍ قَريبَةٍ مَتى اسْتَقَرَّتْ أُمورُهُ ، ثُمَّ هَبَطَ السِّنْدِبادُ إلى الميناءِ بعدَ أن صافَحَ عَنْبَر ، وَشاهَدَ السَّفينَةَ تُبْحِرُ إلى دِمَشْق .

وَابْتاعَ السِّنْدِبادُ حِصانًا قَوِيًا عادَ بِهِ إلى بَغْدادَ. وَأسْرَعَ

إلى بَيْتِه ، فَوَجَدَ مَجْموعَةً مِنَ الجُنودِ في انْتِظارِه ؛ فَأصابَهُ القَلَقُ ، وَلَكِنَّ قائِدَهُمْ طَمْأَنَهُ وَأَبْلَغَهُ بِدَعْوَةِ الخَليفَةِ لِلِقائِهِ .

وَلَمّا مَثَلَ السِّنْدِبادُ بَيْنَ يَدَي الخَليفَةِ، دَعاهُ الخَليفَةُ لِلْجُلوسِ ، وَأَمَرَ بِرَدِّ أَمْوالِهِ إليه ، وسَأَلَهُ عَنْ غِيابِهِ ، وَعنْ سِرِّ الفَرْقَعَةِ الَّتي هَزَّتْ بَغْداد يَوْمَ فِرارِهِ .

قَصَّ السِّنْدِبادُ ما وَقَعَ لَهُ مِنْ حَوادِثَ ، وَ دَهِشَ الخَليفَةُ وَقالَ : « هَذا وَاللهِ أَعْجَبُ ما سَمِعْتُ في حَياتي . »

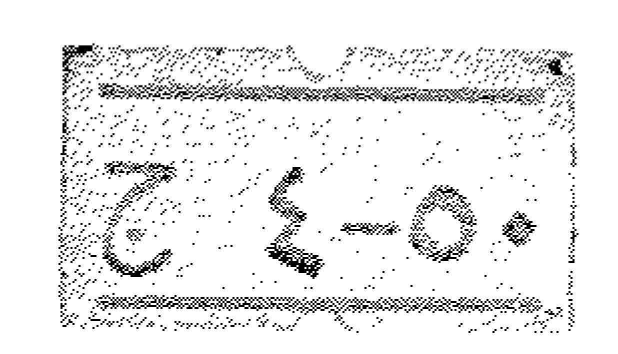
وَأَمَرَ لِلسِّنْدِبادِ بِمُكافَأةٍ، عِوَضًا عَمّا لاقاهُ مِنْ مَشَقَّةٍ في هُروبِهِ ، وَتَقْديرًا لَهُ .

عادَ السِّنْدِبادُ إلى بَيْتِهِ وَقَلْبُهُ يَفيضُ بالسَّعادَةِ ، وَقَدْ قَرَّ قَرارُهُ عَلى أنْ يُمارِسَ حَياةَ السَّفَرِ وَالتَّرْحالِ بَقِيَّةَ عُمْرِهِ .

الينابيع تتفجَّر من التُّراث العربيّ الأصيل ، ومن السِّيَرِ الشَّعبية الغَنيَّة ، ومن الحِكايات الشَّعبية العَربيَّة ؛ لِتُصوِّر نماذج مُضيئة من تراثنا ، وتعرِض قِيماً مُشرِقةً في حياتنا : تمزج بين الجِدّ ، والفُكاهة في لُغة هادِئة راقية : لا تعلو فتعوق القارئ وتصدّه ولا تسفُّ فتهبط بذوقه ومستواه ، وإنما تمتّع وِجدانه وقلبه ، وتُثري فِكره وعقله .

الينابيع

١- سيف الإحسان وقصص أخرى
٢- حبات العقد وقصص أخرى
٣- الباحث عن الحظ وقصص أخرى
٤- مشورة قصير وقصص أخرى
٥- الشعرة الذهبية وقصص أخرى
٦- عنترة بن شداد : مولد ا...
٧- عنترة بن شداد : عبلة ...
٨- عنترة بن شداد : السيف...
٩- عنترة بن شداد : يوم ...
١٠- رحلة السندباد المجهولة



يطلب من : **شركة أبو الهول للنشر**

٣ شارع شواربي بالقاهرة ت : ٣٩٣٥٦٠٨ ؛ ٣٩٢٤٦١٦

١٢٧ طريق الحرية (فؤاد سابقا) - الشلالات ، الإسكندرية ت : ٤٩٢٤٨٣٩